ابراهام لنكولن

كتبها للشباب

چينيفييف فوستر

ترجمها للعربية

امين مرسى قنديل

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الانجلو المصرية

"ABRAHAM LINCOLN"

An Initial Biography

By

Genevieve Foster

Published By Permission

of

Charles Scribner's Sons,

New York.

فهرس

صفحة

كنتكى ٥

طاحون الأذرة فى كنتكى ٩

إينديانا ١٤

زوج أبيه الطيبة القلب ١٩

النهر والقانون ٢٦

نيو سالم ٣٦

مارى طـــود ٤٦

المحـــامى ٥٢

الرئيس ٥٩

التحرير ٧٤

فى جتيزبرج ٨١

نحو النهـــاية ٨٤

اليوم الأخير ٩٠

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه
٥ شارع وفقة الزعرور طل - ١ اطاقة تليفون ٥٨١١٨

كنتكى

فى صباح يوم من شهر فبراير سنة ١٨٠٩ ، اشتد برده ، وانتشر ضبابه ، كان فتى صغير يرتدى بنطلوناً من جلد الغزال ، وعلى رأسه قبعة من جلد « الراقون(١) » ، يجرى بأسرع ما يستطيع أن يجرى فى طريق ضيقة من طرق الغابة فى غرب (ولاية) كنتكى . فربما كانت الدببة تتبعه ، أو كانت جماعة من الهنود الحمر وراءه تقتفى أثره ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ؛ فالفصل شتاء ، والدببة هاجعة ، ولم يعد أحد فى كنتكى يرى غير قليل من الهنود الحمر ؛ فقد تضاءل عددهم حتى صار أقل من عدد صغار الأطفال الذين كانوا فى تلك النواحى نادرين كل الندرة . ولكن هكذا بدت الأمور لدنيس هانكس ، فجعل يجرى بمثل هذه السرعة .

كان ذلك فى الثانى عشر من شهر فبراير ، وكانت ابنة عمه نانسى هانكس لينكولن قد وضعت طفلا ذكراً ، فجاء توم لينكولن إلى المدينة يحمل هذا النبأ ، وليستدعى خالته بيتسى سبارو التى كانت قد أعدت كساء أصفر اللون ليلبسه المولود الصغير .

---

(١) الراقون (أو الراكون) حيوان من أكلة اللحوم فى حجم القط الكبير يعيش فى أمريكا الشمالية وتسميه العامة (قون) أو (كون) اختصاراً . وهو يصيد فرائسه ليلا ، وله فرو طيب أسمر أو رمادى ، ولذا كانوا يتخذون من جلده ملابس للتدفئة (ق)

وكان لتوم ونانسى ابنة اسمها « ساره » فى الثانية من عمرها : ولكن هذا الطفل الجديد صبى ! . فما أن سمع بذلك دنيس — وكان فى التاسعة من عمره — حتى خطف قبعته ، وسارع جريا إلى كوخ آل لينكولن : وظل يجرى ميلين حتى وصل آخر الأمر إلى مكان فى الغابة أخلى من الأشجار . وها هو الآن فيه .

وأمامه فى ذلك المكان المنعزل الذى أخلى من الأشجار ، يقوم كوخ صغير أدكن اللون مبنى من كتل الخشب ، له باب واحد ، وشباك واحد ، ومدخنة كبيرة مطلية بالطين يتصاعد منها الدخان

وداخل الكوخ ، كانت نانسى راقدة على فراش من صغار الشجر قبالة المدخنة ، وقد انتشر شعرها الكستنائى الطويل على الحشيّة المصنوعة من قش الأذرة ، والطفل بجانبها . وكانت على وشك أن تنام عندما سمعت دقاً على الباب ، وصوت صبى عكر عليها أحلامها : إنه دنيس واقف أمامها يلهث ، ويتلفت حوله فى الضوء الخافت وينظر مرة باحدى عينيه ثم بالأخرى .

قال وهو يلهث : الطفل ؟ أين هو ؟ انى لاأراه فى أى مكان هنا !

فتبسمت نانسى ، وأشارت إليه ، ثم رفعت فى رفق طرف ملحفة مصنوعة فى المنزل .

ثم قالت : يا ابراهام ، جاءك زائر . وابراهام هو الأسم الذى سمى

به الطفل على اسم جده لنيكولن . ثم شرحت لدنيس الأمر بصوتها الناعم البطىء .

فلما ألقى الصبى نظرة على الطفل ، اختفت من وجهه علائم التحمس واللهفة التى كانت بادية عليه ، وقال . أهذا طفل ؟ هذا الشىء الصغير الأحمر المتجعد كله حتى كأنه تفاحة جافة ! وكان كل مايستطيع أن يقوله عنه :

« أظن انه لن يكون شيئاً يذكر »

ولم تجبه نانسى لينكولن بشىء ، بل أغمضت عينيها ، وعادت إلى آمالها وأحلامها السعيدة التى أفعمت قلبها صباح ذلك اليوم من شهر فبراير .

وكبر إيب الصغير هذا بأسرع مما ينمو سائر الأطفال ؛ وسرعان ما استطاع أن يجلس ويلعب بدمية ساره المتخذة من كوز أذرة ، ويمد يديه إلى ذنب الكلب . وبعد قليل أخذ يمشى حول الكوخ بساقين طويلين نحيلين كالمغزل ، مما جعل أباه يضحك منه ويظن أنه سرعان مايكبر فيحمل بندقية ويذهب بها ليصيد « الرواقين »

فقد كان الصيد هواية توم لينكولن التى يحبها . فقبل انتقالهم إلى هذه المزرعة التى لم يتم تطهيرها بعد مما بها من أشجار الغابات ، كان توم ونانسى يقطنان فى المدينة . ومع أن توم كان نجاراً ماهراً ، فانه كان يفضل الصيد فى أى يوم على العمل بآلات النجار ، أو على العزق فى

المزرعة. فلا غرو ان كانت الأذرة، والقرع، والبطاطس، التى زرعها لم تنم دائما كما يجب؛ فقال إن الأرض ليست طيبة، فكلها جذوع، وأحجار، وصلصال أصفر؛ فخير لنا أن نبيعها ونتنقل إلى مكان آخر.

فلما بلغ إيب الثالثة من عمره انتقل آل لينكولن إلى ما ظنه أبوه مزرعة أيسر عملا فى «نوب كريك» على بعد خمسة عشر ميلا من حيث كانوا. وهذا أول مسكن يذكره إيب؛ فقد ظلوا يسكنون وادى «نوب كريك» هذا حتى بلغ إيب السابعة.

وفى ذات يوم وجد ايب لنكولن كلباً جريحاً فى الطريق ، فحمله معه وتحسس ساقه الجريحة بيده ، وأشفق عليه .

ومنذ ذلك اليوم أصبح ذلك الكلب الضال الذى عثر عليه ايب رفيقاً أميناً له .

طاحون الأذرة فى كنتكى

فى صباح يوم من أيام الصيف ، كان إيب نائما على زكيبته المحشوة بقشور الأذرة ، والملقاة على أرض الكوخ : وكانت الشمس تلقى شعاعا رفيعاً مائلا من بين كتل الخشب على جفونه المطبقة إطباقاً تاماً : فطرفت عيناه ، وتقلب على جنبيه ثم نهض ؛ وعندئذ وثب إليه جرو حقير جعل يتلوى ويتثنى يميناً وشمالا ليغدق عليه القبلة بعد القبلة .

فأخذ إيب الكلب فى حجره ، وجس ساقه الأمامية الملتوية التى سبق أن كسرت شر كسرة عند ما وجده إيب منذ عدة أسابيع ملقى على الأرض فى الطريق مهجوراً .

فقال إيب : يبدو انها قد شفيت الآن ، وفى ظنى أنك تستطيع أن تسير اليوم معى ، ومع أوستن إلى الطاحون ؛ ثم تثاءب إيب ووقف ، ورفع ساعديه عاليين على رأسه ذى الشعر الأسود المتشعث ؛ فقد كان فتى ضخما ضخامة لا تتلاءم مع سن السابعة ؛ كما كان فارع الطول ؛ حتى أنه كان يتمنى أحياناً لو لم يكن بهذا الطول حتى لا يعاكسه الصبية وينادونه « بأبى طويلة » .

ومهما يكن الأمر فلم يعد أحد يستطيع الآن أن يقول عنه بعد ذلك إنه « الولد ذو القميص » . هكذا ظن ، وهو يرتدى بنطلونه

الجديد المصنوع من جلد الغزال . فقد صار عنده الآن هو أيضاً بنطلون يلبسه ، كما يلبس الأولاد الكبار ، وليس مجرد قميص صغير قديم يتدلى عند ركبتيه .

وكانت طاحون « هُدْجن » التى اعتاد آل لينكولن أن يطحنوا فيها أذرتهم ، تقع على بعد ثمانية أميال من المزرعة ، فأعد إيب خشب الحريق فى الليلة السابقة كى يبدأ عمله فى الصباح الباكر ، ولم يبق عليه إلا أن يعلف خنزيره الصغير ، ويطعم جديه ، ويجلب الماء من العين . فلما عاد ومعه الدلاء ملأى حتى حافاتها بالماء ، كانت « ساره » قد استيقظت ، وأخذت أمه تُعد طعاما من دقيق الأذرة ، وتقلو لحماً مقدداً فى مقلاة ذات يد طويلة .

ولم يكن أبوهم معهم ، فقد خرج يتصيد ؛ ولكنه لم يقصد هذه المرة صيد الحيوان وإنما البحث عن أرض جديدة ؛ فعاد توم لينكولن إلى قلقه من جديد ، وتمنى لو انه يجد مكانا خيراً من « نوب كريك » لأهله يعيشون فيه . ولكن أهله لم يكونوا راغبين فى مكان أفضل من هذا ، فهو بيتهم ومأواهم — هذه المحلة الصغيرة فى ذلك الوادى بما فيها من جماعات لتقشير الأذرة وحلقات من النسوة تتنافسن فى إعداد الملاحف .

وكان إيب يحب بوجه خاص أن يذهب إلى الطاحون . ومن حسن حظه أنه قد كبر الآن وأصبح قادراً على أن يذهب إليه

وحده . هكذا رأى . فحمل زكيبته الملأى بالأذرة على عاتقه معلقة على عصا . وكانت أمه واقفة عند الباب لما خرج بها إلى الطريق والكلب الصغير يقفز وراءه . . فايب لا يبدو فى نظرها ضخما كما يقولون ، وبعد ذلك عجبت كيف يستطيع أن يحمل هذا المقدار من الأذرة ، تلك المسافة الطويلة !

وكان أوستين ينتظره على بعد مسافة قصيرة فى الطريق ، وكان هو الآخر يحمل زكيبته الملأى بالأذرة ، فضلا عن بندقيته ليحتميا بها ؛ فأمامهما جزء موحش من الطريق وسط الغابات الكثيفة ،وكان يخشى أن تصادفه الذئاب ، أو حتى القطط البرية . وسأل : وأنت ! ؛ ألست تخشاها يا إيب ؟

فهز إيب رأسه وقال لا : لست أخشاها إلى حد كبير .

واستأنف سيره فى صمت . فقد كان يفكر تفكيراً جديا ، وشفتاه تتحركان ثم قال فجأة : « د ... ك — ديك » فلعل هذا مجاء هذه اللفظة .

أما أوستين فلم يدر ، ولم يهتم بالأمر . وفهم إيب . فهكذا دأب بعض الناس ، ومنهم أبوه . فهو يقول إنه من الأفيد للمرء أن يتعلم كيف يصيد الديكة بدلا من أن يتعلم هجاءها .

ولكن أمه لم تكن من هذا الرأى ، فهى تستطيع أن تقرأ وتكتب قليلا . وفى الربيع عند ما افتتح أحد المعلمين مدرسة له فى المحلة أقنعت أباه بأن يرسله هو وساره معا إلى المدرسة وكانت تقول له:

تعلم يا إيب كل ما تستطيع أن تتعلمه ، واعمل على أن تكون رجلا ذا قيمة وشأن .

ولكن إيب لم يتمكن من الذهاب إلى المدرسة كثيراً ، فقد مرضت أمه واضطر أن يبقى بجوارها ؛ على أنه كان يود أن يتعلم حقاً ويكون ذا قيمة وشأن كما قالت أمه . فليكن طحانا كالمستر « هدجن » الذى يقيم فى بلدة سُمِّيت على اسمه ! وكانت زوجة المستر « هدجن » هذا ، تعلّم إيب أن يتهجأ الحروف ، ويعد الأرقام ؛ كما كانت تقرأ له من كتاب عجيب اسمه « خرافات إيسوب » ، وقد فرغ إيب توّاً من أن يقص على أوستين إحدى هذه الخرافات عندما وصلا إلى الطاحون

وكان مدخل الطاحون مزدحما بالناس كالعادة فقد وقف الرجال والأولاد ينتظرون دورهم ليطحنوا مامعهم من الأذرة دقيقا . وكان زوج من الثيران يدور ببطء فيحرك أحجار الطاحون الكبيرة . . ومر إيب وأوستين بجماعة من الصبيان الكبار الفاشلين الذين لاخير فيهم ، وإذا بهما يسمعان صرخة حادة ؛ فاستدار إيب وسأل فى عنف من الذى ضرب كلبى ؟ أأنت الذى ضربته ؟ فابتسم ولد سمين ذو وجه أغبش ، وهز رأسه بالإيجاب . فقال أوستين : موجها حديثه إلى إيب اضربه بجمع يدك ! قاتله ! . ولكن إيب هز رأسه وقال إنه لا يريد أن يقاتل أحداً إلاّ إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وعندئذ ندّد به الصبية الآخرون وقالوا إنه لا يجسر على القتال .

وفى هذه اللحظة ظهر المستر « هدجن » على المسرح وحسم النزاع بأن قال يجب أن يرفع كل صبى منكما الآخر من مقعد « بنطلونه » ويهزه هزاً عنيفاً . فحاول إيب ذلك أولا ، ونجح ، ثم انحنى . وحاول الصبى الأنمش الوجه جهده وأمسك بايب ولكنه لم يستطع أن يرفعه حتى عن الأرض .

وعاد أوستن إلى البيت هذا اليوم ، وهو أشد مايكون اعتزازاً بأنه صديق إيب لينكولن ، أمهر وأقوى صبى عرفه : فان كان به شىء من الغرابة فذلك ميله إلى شىء من الحزق والتزمت . والآن ، وهما يسيران إلى المنزل بدا إيب كأنه لاصديق له فى العالم ، وحاول أوستن أن يتحدث إليه عن مشروعهما الحبيب إلى نفسيهما ، وهو اشتراكهما معاً فى ادارة الطاحون عندما يكبران : ولكن إيب لم يفعل شيئاً سوى أن هز رأسه ، وظل أشد حزناً مما كان : إلا أنه قال : من يدرى فلعله لن يستطيع الذهاب إلى الطاحون بعد ذلك .

فقد يحضر والده الآن فى أى يوم من الأيام : وعندئذ يلتقل بهم إلى مكان بعيد موحش منعزل يسمى إينديانا

ولم يستطع إيب أن يتكلم عن هذا المكان ، وكل ما استطاعه كان أن يبتلع ريقه ، ويحبس دمعه ، إلى أن يبلغ المنزل : وعندئذ رقد فى الركن المخصص له فى الكوخ ، وكلبه الصغير إلى جانبه ، وجعل يلشج حتى غلبه النوم فنام . فهو لم يكن معدودا فى البيت ولداً كبيراً جداً ، لأنه لم يتجاوز بعد السابعة من عمره .

إينـــــديانا

انقضت أيام الصيف ، ومضى الخريف بما فيه من أوراق الأشجار المتساقطة ؛ ثم حل مساء أدكن فى شهر نوفمبر — وهو آخر مساء لهم قبل أن يرحلوا إلى إينديانا ؛ وكانت الظلمة قد أخذت تغمر الكوخ الصغير لما جاء إيب فى بطء يجر نفسه بعد أن ودع أوستين وترك له بقرته الحبيبة اليه ؛ فرأى من البـــاب المفتوح ضوء النار منعكسا على وجه أمه ، وسمع صوتها الرقيق وهى تتلو الفاظا من الأنجيل : « الرب هو راعى فلن أكون بحاجة إلى شىء » فوقف ينصت إلى ما تقول « ... نعم حتى وإن كنت أسير فى وادى الموت فانى لن أخشى شراً

ثم دخل فى سكون وجلس عند الدكة الواطئة خلفها حتى فرغت من تلاوة الألفاظ الأخيرة

وقالت إن هذه الألفاظ : تهدىء نفسى وتدخل على الاطمئنان .

وهز إيب رأسه ، وشعر بأنه كذلك أحسن حالا . فيبدو أن تلك الكلمات الغريبة الجميلة تصل إلى قرارة نفسه فتبلغ ذلك الجزء منه الذى يؤلمه

وفى اليوم التالى عند شروق الشمس وقف حصانان هزيلان مسنان عنـــد باب الكوخ ؛ وكانت أمه وساره مشغولتين بتطبيق

الملاحف ، وحزم الأطباق المصنوعة من المعدن . وكان أبوه يصفر ويغنى ، وهو يرفع الغلاية الحديدية والمقلاة . وسلم إيب بضعة أشياء لينقلها خارج البيت .

ثم قال إن هذا الأثاث تافه لا قيمة له ، وليس جديراً بعزيزتى نانسى الحلوة ، الجميلة ، ولا بكوخها الرائع الجديد فى إينديانا .

فتبسمت نانسى ، وسألت عما إذا كان ثمة واعظ متجول يصل إلى تلك النواحى ، كما هى الحال هنا فى كنتكى ، حتى يستطيعوا أن يسمعوه يتلو عليهم الإنجيل . وكان توم واثقاً من هذا الأمر ، فكل شىء سيكون على ما يرومون ، إذا ما وصلوا إلى « بيدجن كريك » فى « إينديانا » .

وتمنى دنيس هانكس لو ذهب معهم ، عند ما توقفوا عند بلدة « اليزابث تاون » ليودعوا العم توم والخالة بيتسى سبارو ؛ وقالت لهم الخالة بيسى إنهم قد ينتقلون هم أيضاً من هنا السنة القادمة ، فنفوسهم تحدثهم بأنهم سيعبرون نهر الأوهايو ، ذلك الذى يقول الناس عنه إنه أكبر وأوسع نهر يمكن أن يتصوره إنسان .

وفى اليوم التالى ، كان ذلك رأى إيب أيضاً ، عند ما بلغوا النهر وشرعوا يعبرون مياهه العريضة اللامعة ، « بالمعدية » .

ونهر « الأوهايو » هذا يفصل كنتكى عن إينديانا ؛ وقال والده إنه يعمل أكثر من ذلك ، فهو يفصل جميع الولايات التى يستطيع

الأغنياء فيها أن يقتنوا العبيد ويملكوهم ، عن الولايات التى يحرم عليها القانون ذلك . وهـذا هو السبب فى أنه من الخير للفقراء أمثالهم أن يلتقلوا .

وقد بقيت ستة عشر ميلا من عند النهر ، عليهم أن يقطعوها قبل أن يصلوا إلى الغابات الكثيفة : وهى أعمق وأكثف من أى غابات عهدوها فى كنتكى . فليس فى بعضها أى أثر لطريق وكان ، أبو إيب قد استعار عربة ليحمل عليها المؤن اللازمة لهم فى الشتاء : وكثيراً ما كان يضطره الأمر إلى قطع الأشجار حتى يستطيع أن يجد له طريقاً ينفذ منه . ولما وصلوا ، لم يجدوا أمامهم شيئاً يرونه .

فلم يكن ثم شىء سوى كومة من صغار الشجر الملتف ، وبضع أشجار عليها بضعة خطوط علامة على الموضع .

وقال والده إن أول شىء يجب أن يعملوه هو أن يقيموا حظيرة من جذوع الشجر ليعيشوا فيها إلى أن يتم لهم بناء الكوخ : فعاون إيب أهله على عمل هذه الحظيرة ، وأخذوا يقطعون أشجاراً صغيرة ، ويقيمون منها حظيره مثلثة الأضلاع مفتوحة من الأمام .

وفى هذه الحظيرة المفتوحة قضوا فصل الشتاء الطويل . فكان الهواء يهب عليهم فيدفع المطر البارد والثلج المتساقط داخل الحظيرة ؛ وأحياناً كان يهب عليهم الدخان المتصاعد من كتل الأخشاب التى تحرق فى الخارج . وكانوا يطهون طعامهم من لحم الصيد ، ومن

الديكة الرومية التى يصطادونها ويشوونها على النار التى كانوا يستبقونها مشتعلة طول الليل لإرهاب الذئاب العاوية فى الظلام .

وذات يوم صحت سماؤه ، وصفا جوه ، قام والد إيب يخطط الأرض اللازمة لإقامة الكوخ الجديد ؛ وأنه ليجب أن يكون كبيراً ، له علّية تخصص للنوم ، وله أوتاد مثبتة فى جدرانه ليستعينوا بها على الصعود إلى العلية . وقد استغرق قطع الشجر والخشب عدة أيام قصار ، قارسة البرد . ثم أدبر الشتاء ، وحل الربيع ، وجاء بعده الصيف ، فأقيمت الجدران ، وتم بناء المدخنة ، ووضع السقف ؛ ثم انتقلوا إلى الكوخ .

وجاء العم توم والخالة بيتسى سبارو ليعيشا معهم فى الحظيرة القديمة ، الا أنهما لم يستمرا فيها طويلا فقد توفيا كلاهما فى الصيف بمرض عضال لا شفاء منه .

وقامت نانسى بتمريضهما وظلت تُعنى بهما حتى أصيبت هى الأخرى بالحمى .

وعلى بعد ميل من الكوخ كانت عين ماء ، وقطعة أرض لينة مغطاة بالرمال تأتى اليها الغزلان مع أخشافها الصغار المنقطة لتشرب . وكانت تحيط بها من كل جانب الغابات العميقة الهادئة الدافئة ذات الأرج الفواح يغمرها الضوء الأخضر اللامع ؛ فى تلك البقعة الهادئة اتخذوا مقبرة دفنوا فيها نانسى لينكولن فيما بعد .

فهى لم يمتد بها الأجل حتى ترى الكوخ الجديد الرائع ، بعد أن تم بناؤه ، ولم تر الأثاث الجديد وهو يصنع ؛ فقد عزم توم على صنعه ، وعلى تطهير أراض جديدة ، من الغابات ، وعلى أن يبدأ المزرعة بداية أفضل . ولكن أياماً كثيرة صالحة للصيد توالت ، فظل الكوخ من غير شباك ، ومن غير باب ؛ اللهم سوى ثقب تركوه وسط الأخشاب . ولم يجعلوا للكوخ أرضية يضعونها فوق التربة السوداء . فلما مرضت نانسى وكادت تحترق من وعكة الحمى الغريبة ، رقدت ، كما كانت ترقد دائماً ، على سرير من أعواد الشجر ، وعلى حشية محشوة بقشر الأذرة .

وجرى إيب يحضر لها أقداحاً ملأى بالماء البارد ، ولكن صحتها ظلت تسوء يوماً بعد يوم . وأخيراً أمسكت بيد إيب وأوصته أن يكون كريماً مع ساره ومع أبيه ، وأن يؤمن بأن الله يعلم ما فيه الخير للناس ، ثم . . . ثم لم تلبس بعد بكلمة ما .

وكان إيب قد بلغ الآن التاسعة من عمره ، فعاون أباه والدموع تتحدر على وجهه ، على إعداد تابوت لأمه . وبينما هو يسير خلفها فى طريق الغابة جعل يفكر فى تلك الكلمات التى اعتادت أن تقولها عن « السير فى وادى الموت من دون أن تخشى شيئاً » . فليت واعظاً يقرأ شيئاً من الإنجيل على قبرها ، إذ أن إيب يعرف أن هذا ما كانت تتمناه . ولكن الوعاظ المتجولين نادرون كل الندرة فى غابات الهنود العميقة المظلمة فى إنديانا .

زوج أبيه الطيبة القلب

مضت سنة كاملة قضوها فى الوحشة والبؤس ، حتى لم يعد والد إيب أن يطيق أكثر مما احتمل ؛ فعاد إلى كنتكى تاركا إيب وساره وحدهما مع دنيس هاتكس ، الذى جاء ليعيش فى كوخهم بعد وفاة الخالة بيتسى

وذات يوم مظلم كئيب من أيام ديسمبر ، جلس إيب قبالة النار ينقش جميع الحروف التى أستطاع أن يتذكرها ، على الرماد ، ويتمنى لو كان يعرف القراءة . فكان كل يوم يمضى عليه كأنه أسبوع ، لأنه كان ينتظر عودة أبيه ؛ وكان يعرف السبب الذى من أجله رحل . على أن هذه المعرفة لم تكن لتجعل الانتظار أهون عليه ولا أيسر . وكان دنيس قد عاد تواً ، ومعه بندقيته حاملا سنجاباً للغذاء ، ووعدت ساره بطهيه ، وأن تجعل منه طعاما شهيا ؛ لكن إيب قال لها إنه لا يستطيع أن يأكل ، بل انه لايستطيع حتى أن يبلع شيئاً !

وقال فى نفسه ، ما العمل ياترى اذا لم يحضر أحد ؟ أو إذا حضر شخص ما ، ولم يحبّه هو ولا ساره ؟ وماذا يحدث إذا . . . وفجأة سمع وقع حوافر الخيل ، فبادر وخرج من الكوخ ؛ ولم يكد يقف على جلية الأمر ، حتى حضرت هى — هى ، زوجة أبيه ساره بوش لينكولن . وكان هو أول من رآها وهى جالسة بجانب والده على مقعد فى عربة

كبيرة مملوءة بالأثاث حتى كان لابد لها من أربعة جياد تجرها .

وجلس على كومة الأثاث صبيان صغيران وولد ، قفزوا جميعا من العربة عندما وقفت ، وليثوا يحملقون فى وجهى ساره وإيب ، وهما لابسان ثيابهما القذرة المهلهلة ثم جاءت المرأة الطويلة ووقفت بجانبهم !

وقالت هؤلاء أولادى — جون ، وساره ، وماتيلده جونستون وكان صوتها حنوناً فيه رنة الصداقة . ثم قالت : وأظن أنك ساره لينكولن ثم عادت تقول فى بطء : وأنت لا بد أن تكون إبراهام .

فرفع اليها إيب نظره ؛ وإذا عيناها تنمان عن الصداقة مثل صوتها . ولم يبد عليها أنها لاحظت أنه كان طويلا أكثر مما ينبغى ، ولم تحفل بأنه غير وسيم ، بل ابتسمت : وكذلك ابتسم إيب : ومن ثم حتى آخر لحظة من حياته ظلت هذه الأم الثانية « خير صديقة له » .

وقالت فى قوة وهى تخطو إلى الكوخ : والآن ، سيكون أول شىء أعمله هو أن أعد ما نأكله . أما أنتم أيها الصغار فاذهبوا فى أثناء ذلك إلى حوض الخيل واغسلوا أجسامكم كلها بهذا الصابون اللين .

فقال إيب فى نفسه : نغسل الجسم كله ؟ وفى الشتاء ؟ انها لفكرة غريبة كل الغرابة حقاً . ومع ذلك فقد غسل جسمه ، وشعر بعد ذلك بشعور طيب ؛ كما شعر بأنه من الخير له أن يحصل على مشط يمشط به شعره الأسود المتلبد ، وأن يلبس قميصاً نظيفاً من قمصان أبناء جونستون ، ثم يجلس لتناول طعام جيد ساخن مع ثمانية أشخاص حول المائدة ، يطعمون

وبعد تناول العشاء عمدت أمه الجديدة إلى الكوخ القذر فكنسته ، ثم قالت لوالد إيب : كى يكون هناك شيء يشبه اللياقة ، ينبغى أن يكون للكوخ أرضية من الخشب ، وباب ، ونوافذ . ثم عليه بعد ذلك أن يأخذ شيئاً من الجير الى « جنتريفيل » ويطلى به الحوائط . وينبغى فى هذه الليلة عينها أن يعاون كل واحد منكم على حمل قطع الأثاث ، وعلى فرش المراتب المحشوة بالزغب ! ! وشعر إيب بشيء يتحرك فى الصندوق عند ما أنزلوه !

وفى الصباح التالى فتحت زوجة أبيه الصندوق فكان فيه كتابان أحدهما الانجيل والآخر — إنه لا يكاد يصدق عينيه — كتاب الخرافات الحبيب إليه .

كان « خرافات ايسوب »

وسألته زوجة أبيه : أتعرف القراءة ؟ فهز رأسه . فأجابت هى بسرعة : ولا أنا . ولكنك لاشك تود أن تتعلم ؟ (وكانت تعرف الجواب قبل أن ينطق به) . وعلى هذا فسأعمل على أن تتاح لك الفرصة عندما يزداد عدد النازلين فى هذه الأصقاع ويصبح فى وسعهم أن يشيدوا مدرسة !

ولما حل الشتاء كان إيب قد بلغ الثالثة عشرة من عمره . وافتتحت المدرسة فعلا وذهب اليها كل الأطفال بضعة شهور ، أما الآخرون فلم يحاولوا أن يتعلموا . . . ولكن إيب كان مختلفاً عنهم كل الاختلاف

فجعل يراجع الألفاظ التى يحتويها كتاب الهجاء المرة بعد المرة، وجعل يتمرن على الكتابة فى كل مكان، وبخاصة على ظهر جاروف النار الخشبى الكبير.

وأخذ دنيس يهتم بالأمر، فصنع قلماً من ريشة طير يعرف بالباشق الامريكى، وعمل قليلا من المداد، وأحضر قليلا من الورق من الدكان الذى فى جنتريفيل. ليجعل منه كراسة، كتب إيب فيها

إبراهام لنيكولن

يده وقلمه.

انه سيكون صالحاً ولكن

الله وحده يعلم متى

لقد بلغ الآن الرابعة عشرة. وأخيراً أصبح يعرف القراءة والكتابة، ولكن والده كان يكلفه القيام بأعمال كثيرة — أعمال شاقة — من أعمال العزق. ومع ذلك فان إيب كان كلما استطاع أن يترك الفأس والمجرفة يعود إلى القراءة والكتابة عودة الجائع إلى الطعام

ولم يستطع توم أن يفهم لذلك معنى. فقال: لو أن إيب ضعيف أو مريض لكان الأمر مختلفاً جداً، ولما استطاع أن يذهب إلى الصيد: ولكن شاباً ضخماً مثل إيب يتجه إلى التعلم من الكتب بهذا الشكل، يبدو لى غريبا كل الغرابة.

ولكن زوجة الأب الطيبة فهمت هذا الصبى الذى يختلف اختلافا

كبيراً عن غيره من الصبيان . فأحيانا ، وهى مشغولة بجدل الملابس أو ترقيعها ، كان يطلب منها أن تصغى إليه وهو يقرأ لها بصوت عال حكاية مضحكة ؛ فيظلان يضحكان منها معامدة طويلة .

فأول كتاب ملكه إيب فى حياته كان كتابا حصل عليه من أول رجل اشتغل عنده ، وهو السيد جوسيا كروفورد أحد المزارعين القريبين منه .

وكان السيد كروفورد رجلا نحيل الجسم متزمتا له طريقة فى الحرص الشديد على المال ، حتى صار عنده منه أكثر مما عند أى رجل آخر من الجيران ، ففى مقدرته أن يستأجرهم جميعا ليعملوا عنده

وقد عاونه توم لينكولن على أن يبنى بيتاً جديداً فى المزرعة ، ولذا أرسل ابنه إيب الصغير ليشتغل أجيراً عنده ، ولم يكن وقتئذ قد تجاوز الخامسة عشرة ربيعاً مع أن طوله قارب الستة أقدام ، وكان قوياً بقدر ما هو طويل .

فذات يوم كان السيد كروفورد ورجلان آخران أو ثلاثة فى حيرة من أمرهم بشأن الطريقة التى يمكن أن يرفعوا بها عشة للدجاج مصنوعة من كتل الخشب أرادوا نقلها من مكانها إلى مكان آخر .

فسأل الرجل بصوته الرفيع القاسى : أين إيب ؟ هل عاد إلى القراءة ؟

فأجابه واحد من الرجال : ربما ! أو لعله فى الطريق يتحدث إلى

أحد الغرباء ، فأنت تعلم أنه لايدع احداً من المسافرين يمر من غير أن يتعلم منه كل شيء يعرفه .

وعندئذ جاء الولد الضخم يتلكأ سائراً على مهل .

وقال بصوته المتثاقل : اتريدون نقل العشة ؟ فالى أين ؟

فأشار الرجل الى الموضع الذى يريدون نقلها اليه . فما عتم إيب أن انحنى ورفعها على ظهره واحتملها ثم أنزلها . فعل كل ذلك وحده بما حير الرجال وأخرسهم .

ثم قال مخدومه : أن إيب قوى ما فى ذلك شك . ولكنه كسلان فهو يستطيع أن يقشر الأذرة ، ويقطع الأشجار ، ويفلق الخشب بأسرع مما يستطيعه رجلان إذا شاء ، ومع ذلك فهو يفضل أن يقرأ على أن يشتغل .

أما جوزيا نفسه فلم يكن يحفل كثيراً بالكتب ، وإن كان يملك بعضاً منها ، فسمح لإيب أن يأخذ كتابا يقرؤه فى بيته وطلب منه أن يحرص عليه . وكان الكتاب سيرة جورج واشنجطن .

وما كاد إيب يطيق الأنتظار حتى يبدأ قراءته . ولما بدأ لم يستطع أن يتوقف ، فظل يقرأ المساء كله وهو منبسط على الأرض أمام موقد النار إلى أن جاء أبوه وغمر النار بالرماد فانطفأت ، واضطر إلى الذهاب إلى مخدعه . وكان ينام فى العلية . ولكى يكون الكتاب فى متناول يده عندما يطلع النهار اعتاد أن يأخذه معه ويضعه فى حرص

وحفر بين كتل الخشب وفى الصباح التالى لما مد يده ليأخذه أسقط فى روعه إذ وجد الكتاب قد تشبع بالماء ، لأن السماء قد أمطرت بالليل . فما عساه أن يفعل يا ترى ؟ أو ما عساه أن يقول ؟

قال جوزيا كروفورد فى لباقه وفطنة : حسناً بما أن ذلك هو أنت يا إيب ، فما عليك إلا أن تقضى ثلاثة أيام فى تقشير الأذرة ، وذلك بعد ذلك أن تحتفظ بالكتاب لنفسك ، ثلاثة أيام فحسب ! إن إيب لم يكد يصدق الأمر . وبعد انقضاء هذه الأيام الثلاثة أصبح الكتاب ملكا له ؛ وهو سيرة جورج واشنطن . فقرأه المرة بعد المرة ، وكانت مطامحه تتحرك فى نفسه بعد كل مرة يقرؤه .

قال ذات صباح لزوجة السيد كروفورد : إنى لن أظل دائماً أعمل فى عزق الأرض وتقشير الأذرة وتفليق الأخشاب لكسب رزقى . ولما سألته عما يريد أن يعمل ، أو يكون ، أجابها بأنه يريد أن يكون رئيساً للولايات المتحدة . قال ذلك وعلى فمه ابتسامة صغيرة ، كأنما كان يمزح ؛ ولكن صوته كان فيه رنة الجد . ثم قال لها : ومهما يكن الأمر فانى سأظل أدرس وأستعد ، فلعل الفرصة تسنح لى فى يوم من الأيام .

النهر والقانون

ظل إيب إلى أن تجاوز السابعة عشر من عمرة ، يعمل فلاحاً أجيراً ، يشتغل من الفجر حتى المساء . وعاش فترة من الزمن على مقربة من نهر الأوهايو عند مزارع كان يدفع له ستة دولارات فى الشهر ؛ وكان أقصى مايربحه لايتجاوز ثلاثين سنتيما فى اليوم نظير قيامه بذبح الخنازير . وظل على هذه الحال إلى أن جاء ذلك اليوم الذى لايسى ، والذى عمل فيه على نهر الأوهايو

فقد صنع سفينة مفرطحة القاع ، ووقف بها فى وسط النهر ينظر إلى سفينة تجارية عالية بيضاء ، ذات صفارة ، وعجلة دوارة تحركها ، ومدخنة يتصاعد منها الدخان . وبينما هو على ظهر سفينته المفرطحة إذ ألقى إليه بعضهم نصفى دولارين من الفضة ، فالتقطهما . وها هما فى يده ، يتألقان كأنهما قطعتان من النهر ذاته .

دولار !

لقد ربح دولاراً كاملا ؛ كسبه بعمل قليل هين ؛ ذلك أنه كان عند الشاطىء يعالج سفينته فجاءه رجلان غريبان يريدان اللحاق بمركب تجارى يسير فى النهر متجهاً نحو المصب ؛ فالمراكب التجارية لاتستطيع أن ترسو على مقربة من الشاطىء . وكان ما عمله إيب أنه « عداهما » بسفينته ، وحمل أمتعتهما إلى المركب التجارى .

ومن أجل هذا العمل الهين ، ألقيا إليه بدولار !

فما الذى يمنعه أن يعمل فى النهر منذ الآن ؟ فاذا ما تيسر له الحصول على شحنة من بضاعة ما ليبيعها ، فلماذا لا يأخذها وينحدر بها فى نهر المسيسيبى إلى مدينة نيو أورلينز ؟ فالسفن المفرطحة تمر كل يوم مشحونة بالخنازير والديكة الرومية ، ودقيق الأذرة ، والبطاطس ، وسائر الأنواع التى يرسلها الفلاحون بطريق النهر لتباع هناك . فلماذا لا يفعل هو كذلك مثلهم ؟

فقال له أبوه إن هذا مستحيل لأنه لايزال صغيراً بعد ، ولأنهم لا يستطيعون أن يحصلوا من غلات مزرعتهم المسكينة على شىء يفيض عن حاجتهم ليبيعوه .

وعلى هذا وجد إيب نفسه مضطراً أن ينتظر . ولكنه ظل مع ذلك يسأل الشيوخ من الرجال الذين يعملون فى النهر ليقف منهم على طريقة العمل لو حدث ووافته الفرصة .

وكان قد حصل فى أثناء ذلك على عمل لا يشغل إلا جزءاً من وقته فى مخزن جونس ببلدة جنتريفيل ، وإلى جانب ذلك ظل يعمل فى سفينته المعدية ينقل عليها الناس من ضفة إنديانا .

وحدث ذات يوم أن رجلين من ولاية كنتكى كانا يعملان فى « معدية » لهما من ضفة النهر التى عند ولايتهم ، فطلبا القبض عليه ؛ وجىء به ليحاكم أمام قاض من قضاة كنتكى .

فقالا للقاضى « إن هذا الرجل من أهالى إنديانا وليس له الحق فى أن ينقل الركاب عبر النهر لأن ذلك مخالف للقانون »

فسأل القاضى إيب أن كان قد تجاوز بالركاب منتصف النهر . فأجاب بالنفى . وعندئذ قال القاضى بأنه لم ينتهك حرمة القانون .

فقال إيب فى نفسه القانون ! هذا شىء آخر يجب عليه أن يعرف شيئاً عنه . فظل يذهب بعد ذلك إلى المحكمة عند قاضى كنتكى كلما استطاع إلى الذهاب سبيلا .

واقترض من أحد قضاة إنديانا كتاباً فى قوانين هذه الولاية كى يقرأه . فرأى أن بعض قوانينها يخالف كل المخالفة قوانين كنتكى كالقانون الخاص بتملك العبيد مثلا .

كذلك رأى أن هناك قوانين للولايات المتحدة تطبق عليها كلها جملة ، ووجد إيب فى كتابه أول قوانين سنّت للولايات المتحدة وتسمى الدستور . وعلى صفحة أخرى وجد إعلان الاستقلال ، حيث ذكر السبب الذى من أجله أرادت الولايات أن تتحد ، أولا وتكوّن أمة جديدة .

ورأى إيب أن كل ذلك صعب الفهم ، عسير عليه أن يدركه ، ولكن من المفيد أن يظل يفكر فيه ويحاول حل مشكلاته . فعبارة « خلق الناس متساوين » مثلا . ما معنى ألفاظها ؟

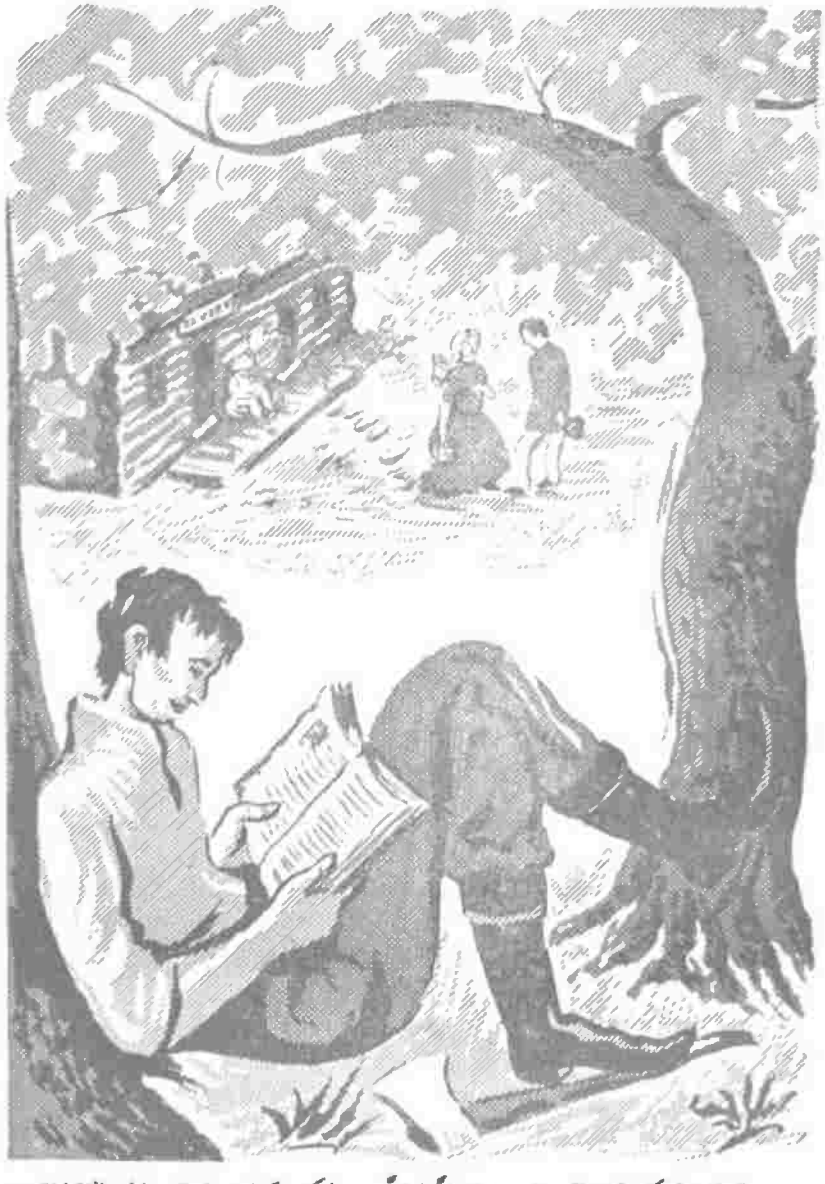

وكان لنكولن الصغير محدثاً لبقاً . ولكنه كان يفتقر إلى الثقافة ، فانكب على القراءة ودرس قواعد اللغة . وكان يقترض بعض الكتب من أصدقائه .

وظل يقرأ ويدرس حتى أصبح على دراية تامة بقواعد اللغة .

فجعل يقلب فى فكره كل شىء يقرؤه ، ويقلبه المرة بعد الأخرى إلى أن يستطيع التعبير عنه بألفاظ من عنده .

وسرعان ما لاحظ ، وهو فى مخزن جونز ، أنه كلما قال للناس شيئاً عما قرأه فى كتاب القوانين ، وحاول أن يوضحه لهم بذكر قصة مضحكة أو بقصتين احتشدوا حوله يصغون إلى ما يقول :

فنى السنة التى انتخب فيها « أندروجاكسون » رئيساً [للولايات المتحدة] ظن الناس أن كل مزارع فى جنتريفيل وما حولها أصبح يهتم بدراسة القانون . أليس عجيباً أن « أندرو جاكسون » ذلك الرجل البسيط الفقير مثلهم يستطيع أن يصل إلى أرقى منصب فى الدولة ؟ ألا يؤيد ذلك ما نص عليه القانون من أن أمام كل إنسان فى هذه البلاد فرصة حرة تكافىء ما لغيره من الفرص ؟

فنى سنة ١٨٢٨ ، وهى السنة التى انتخب فيها « أندرو جاكسون » كان إيب فى التاسعة عشرة من عمره ، وقام بأول رحلة له فى نهر المسيسبى صوب مدينة نيوأورلينز . وذلك أن السيد جنتيرى من مدينة جنتيريفيل ، وهو مزارع غنى ، استخدمه عنده ليذهب مع ابنه ألن . فقام الولدان ببناء مركب كبير مفرطح القاع وشحناه بضائع مما تنتجه المزرعة ليبيعاها . فنى أوائل الربيع اندفعا فى جرأة مع التيار بمركبهم وانطلقا . وكان إيب عند المجداف الأمامى .

فكانت رحلة قطعوا فيها ألف ميل من ضفاف إنديانا المكسوة

بالغابات إلى مستنقعات المسيسيبي الأدنى وخلجانه الرطبة المشبعة ببخار الماء . وكانت مغامرة كبيرة حقاً . فكانا يبحران نهاراً ويرسوان عند الشاطىء إذا ما جن الليل ، ويحذران كل الحذر من الارتطام بجذوع الأشجار المغمورة فى النهر أو بالرمال العالية فى قاعه .

وذات ليلة حالكة الظلام عند مزارع قصب السكر ، وقد رنق النوم على عيونهما سمعا وقع أقدام على ظهر السفينة ، فهبا من نومهما ووجدا عصـــابة من العبيد الزنوج طلعوا على ظهر المركب قاصدين السرقة .

فصاح بايب شريكه أن آتنى ببندقية

وكان واثقاً من أن العبيد يفضلون أن يكافحوا ويُقتلوا على أن يقبض عليهم ، فاختطف إيب هراوة وطردهم من السفينة ولكنه عاد وفى جبهته جرح تسيل منه الدماء على عينيه . فلا مجال للنوم هذه الليلة إذن فحلا رباط السفينة وأبحرا بها فى النهر صوب المصب ، وبعد يوم أو أكثر أرسيا بها عند رصيف تكدست عليه بالات القطن .

لقد وصلا إلى نيو اولينز ولم يلبثا حتى رأيا نفسيهما يسيران فى شوارعها الضيقة يتفرجان على أفنية الدور الحافلة بالزهور ، ويتطلعان إلى شرفات المنازل ذات الحديد المزخرف ، ويستمعان إلى أحاديث الملاحين الغريبة الذين رست سفنهم فى هذا الميناء ترفرف عليها أعلام من كل أمة من أمم العالم . فى هذه المدينة الفاتنة مناظر رائعة عجيبة

تسترعى أنظار هذين الفتيين اللذين جاءا من غابات إنديانا ، وتجعلهما يفكران فيها .

وكذلك كان بها مناظر مؤذية تتقزز منها العيون ، لأن مدينة نيوأورلينز هذه القديمة سوق من أسواق العالم الكبرى للاتجار فى الرقيق . فعلى جميع الجدران التى حولهما كانت عين إيب تقع على إعلانات ملصقة عليها ، يعلن فيها أصحابها عن استعدادهم لأن يشتروا أو يبيعوا بالنقد عبيداً صالحين للعمل ، ذكوراً كانوا أو أناثاً. وخدما للمنازل أو فلاحين ليعملوا فى الأرض .

وشاهد الفتيان العبيد فى السوق وهم يستعرضون على منصة المزاد صاعدين هابطين ، نيتمكن المشترون من أن يروا ما هم على وشك أن أن يزايدوا عليهم . فكان هؤلاء العبيد يباعون كما تباع الخيل والبغال فى إنديانا . وكان المنظر مريعاً تتقزز منه عيون كل من يشاهدونه .

ومع هذا كله ، فهو أمر قانونى مشروع كما كان يعرف إيب ؛ فقد سبق أن قرأ فى قانون الولايات المتحدة أن للناس فى جنوبى نهر الأوهايو الحق فى أن يملكوا عبيداً ، فان كان تملكهم إياهم أمراً مشروعاً ، فشراؤهم وبيعهم أمر مشروع كذلك . وخطر له أنه لا يتسنى وقف هذا الأمر الا بتغيير القانون .

ولم تكن السفينة ذات القاع المفرطح تصلح إلا للسير فى النهر فى اتجاه مصبه ، وهذا ما دعا الفتيين أن يصعدا فى نهر المسيسيبى على

سفينة أخرى من تلك السفن النهرية التجارية البيضاء ذات المداخن التى يتصاعد منها الدخان . وعاد إيب إلى منزله قبل شهر يونيه فوجد أباه شرع يتحدث عن الانتقال من البيت من جديد .

لقد ظل إبراهام لينكولن يعيش سبع سنين فى مسقط رأسه عند كنتكى ، ثم قضى بعدها أربعة عشر عاماً أخرى فى غابات إنديانا ، والآن فان ولاية إلينوى ذات المراعى المترامية الأطراف ستكون موطنه شطراً كبيراً من حياته .

فى ١٢ فبراير سنة ١٨٣٠ كان إبراهام لينكولن قد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، وبعد مضى ثلاثة أيام على عيد ميلاده كان ينتقل مع أسرته إلى إلينوى .

وكانت العربة التى صنعها لتنقل الأسرة وأمتعة أفرادها واقفة أمام الكوخ من عدة أيام ، وكانت عربة ضخمة مغطاة ، ذات عجلات كبيرة من الخشب الذى قطعه من جذع شجرة ، وكان يجرها ثوران لونهما أحمر ضارب إلى السمرة .

وعلى كبرها لم تكن لتكفى الأسرة . فاحتاجوا إلى عربة أخرى ، لأن ثلاثة عشر شخصاً من آل هانكس ولينكولن وجونستون كانوا جميعاً ذاهبين معاً ، ما عدا ساره أخت إيب فقد توفيت بعد زواجها بقليل . وكل الشباب الآن قد تزوجوا ماعدا إيب . فماتيلدا جونستون أصبحت زوجة دنيس هانكس .

وكانت الخالة ساره زوجة والد إيب هى التى اضطلعت بترتيب كل أفراد القبيلة الكبيرة وتنظيمهم فى العربة وتهيئتها للرحيل ، كما قال دنيس .

وقال أيضاً أن إيب كان يُدخل عليهم السرور ويبهجهم طيلة الطريق بما يقصه عليهم من الحكايات ، ويلقى عليهم من النكات وهو سائر إلى جانب الثورين يضرب بالسوط فى الهواء . وكلما ارتطموا فى الوحل الذى كان يتجمد من جراء الصقيع احتال إيب بشكل ما لإخراجهم من ورطتهم ، وكذلك كان يسهر على كل شىء . وحدث مرة أن كلباً مسكيناً قد ترك وشأنه وهو يعبر مجرى من مجارى المياه ، فلم يطق إيب أن يراه يرجف ويضطرب ، بل عاد أدراجه وخاض المجرى وراء الكلب لينقذه .

كان جون هانكس ، وهو ابن عم آخر لإيب ، هو الذى استحث أقاربه وحرضهم على أن يحضروا إلى إلينوى ، فقد أخبرهم بما فيها من التربة السوداء الدسمة ، وأراضى المراعى المنبسطة ، والعشب الذى ينمو حتى يبلغ طوله قامة الرجل ؛ فليس بها غابات تقطع ، ولا تلال رملية تحرث ؛ بل كل ما بها بضعة أحراش من الشجر وبضع رُبى وتلال مبعثرة هنا وهناك على ضفاف الأنهار .

وثم نهر وإقليم عُرفا بأسم سينجامون ، وهو لفظ هندى معناه أرض الرخاء الصالح للأكل .

أرض الرخاء الصالح للأكل ! هذا اسم حلو الرنين فى أذن لينكولن ، فهو لا يرى مانعاً لديه من بيع مزرعته القديمة التى فى إنديانا بأقل من الثمن الذى دفعه فيها كى يتيسر له أن يذهب إلى هذه الأرض السعيدة .

وبعد قضاء شتاء واحد فيها ، وقد تراكمت الثلوج حتى بلغ سمكها سبعة أقدام ، أجمع القادمون الجدد أمرهم على أن الجو فى مقاطعة سينجامون أبرد مما يستطيعون أن يتحملوه ، فانتقلوا إلى أرض أخرى تبعد مائة ميل جنوباً ، أو ما يقرب من ذلك ، ونزلوا مراعى جوس نست حيث عاون إيب والده على إنشاء كوخ آخر .

وهنا عاد إلى تفليق الأشجار من جديد ، ويقيمها سياجاً متعرجة غير مستقيمة .

فهذه السياج المتعرجة الطويلة سوف تكون فيما بعد حدوداً ومعالم لتغير آخر كبير فى حياته كما هى الآن كذلك .

فبعد أن فرغ إبراهام لينكولن من تفليق الأشجار وتشقيقها ، وضع بلطته ، وودع أسرته ، وغادر المنزل ليشق طريقه فى الحياة فى هذا العالم . فقبل أن يبلغ سن الرشد كان كل عمله ، وكل ما يربحه يذهب إلى والده ، أما الآن فلا ! فقد بلغ الحادية والعشرين وصار حراً يذهب أينما شاء ، ويتصرف فى حياته بالشكل الذى يستطيعه ويريده .

وكان قوياً ، ويعرف كيف يشتغل ، وقد ألمّ بعض الإلمـــام بالقراءة والكتابة والحساب . فهذا كل عتاده . ومع ذلك ظل يأمل ويحلم ويحاول أن يكون شيئاً مذكوراً .

وعرف ، وهو يطوق بذراعيه زوجة أبيه الطيبة — وقد ضمته إلى صدرها بقوة — عرف أن خير صديقة له فى هذا العالم ستظل تثق به وتؤمن دائماً .

نيوسالم

تتكون قرية نيوسالم من سلسلة قصيرة من أكواخ من جذوع الشجر تقوم على ربوة عالية تُطل على نهر سينجامون . وذات يوم من أيام صيف سنة ١٨٣١ هذا كان إبراهام لينكولن الفارع الطول غير الرشيق يسير وئيداً فى الطريق آتياً من عند النهر ، وحاملا حزمة صغيرة . فقد جاء ليعيش فى نيوسالم . وتصادف أن كان مجيئه فى خير يوم صالح لأن يتعرف برجال القرية ، فقد كانوا مجتمعين فى حفل انتخابى ، وشعروا أنهم بحاجة إلى كاتب آخر . وفى هذه اللحظة بدأ إيب الطويل غير الرشيق يتلكأ فى الشارع ، وقد ألقى ظلا طويلا فى الشمس .

فقال رجل وهو ينظر إلى إيب بعين واحدة ، اسمع أيها الغريب ، لعلك تستطيع أن تعاوننا فيما نحن فيه . فهل تعرف بالمصادفة الكتابة ؟

فتبسم إيب ثم قال أظننى أستطيع أن أعمل شيئاً يشبه نبش الدجاج وجلس ؛ وظل طول النهار يدون أسماء الذين يعطون أصواتهم ، ثم وعاها كلها فى ذاكرته ، وكلما خفت الأعمال ، مال بكرسيه على الحائط وأخذ يتحدث عن أمور مضحكة سبق له أن رآها أو سمع بها عند ما كان فى إنديانا . فمالت إليه قلوب الناس جميعاً .

جاء إيب ليعمل كاتباً عند رجل أسمه « أوفوت » فى محل جديد

وهو محل لم يكن مع ذلك قد أنشىء بعد ، ولذا لم يمض زمن طويل حتى رأى إيب نفسه يخرج ومعه بلطته ، يقطع الأشجار ويشذ بها ، ويبنى بها المحل : وكان « أوفوت » يفخر بما وُفق إليه من استخدام مثل هذا الشاب النشيط .

فقال: إن إيب لينكولن هذا ، يعرف أكثر مما يعرفه أى رجل رأيته ؛ وإنى لأراهن على أنه يقهر كل رجل فى مقاطعة سينجامون فى مباراة للمصارعة ، ويفوز عليه .

فرد عليه بيل كليرى هازئاً : أحقاً ما تـ . . . . ـقـ . . . . ـول ؟ وكان لبيل كليرى هذا ، دكان مجاور اختص فيه ببيع الويسكى . — أتمنى أن أراه يصارع جاك آرمسترنج ، فسيجدن نفسه عندئذ فى حرج شديد !

وقال آخر من عصابة كليرى جروف ، وهى عصابة خشنة جافية : إنهم لم يحفلوا كثيراً بايب هذا ، لأنه لم يذق طعم الخمر قط .

وعملت الترتيبات للمباراة . فقال إيب : إنه لا يحب مثل هذا النوع من الشد والجذب ؛ ولكنه يعلم أن عليه أن يبرهن على ما يستطيع أن يفعله . وتقاطرت الجموع من الأماكن النائية حوله ؛ وكان جاك آرمسترنج وقتى مكتنز العضلات قوياً كالثور ، على حين كان إيب خشناً مثل شجرة الجوز الأمريكى : وكانت ذراعاه أطول من ذراعى خصمه ، ولذا تمكن من استبقائه على بعد ذراع منه ، مما أثار غضب آرمسترنج فركب رأسه ووضع كعب حذائه بين قدمى إيب ؛ ومع ذلك لم يشعر إلا وهو ملقى

على ظهره طريحاً على الأرض . فلما نهض ووقف على قدميه ، رأى أفراد عصابته وقد تجمعوا على لينكولن يلوّحون له بقبضات أيديهم

وعندئذ صاح بهم بطلهم السابق وهو يشق طريقه وسط الزحام : أن ارفعوا أيديكم أيها الأولاد ! فايب لينكولن انما كان يقاتل قتالا نظيفاً نزيهاً . صافحوه ! فهو خير فتى حل بهذا المكان !

ظل إيب فى المتجر ، بعد أن أتم بناءه ، يتحبب إلى الناس ، ويتخذ منهم أصدقاء له ؛ وسرعان ما أدرك « الزباين » المترددون على المتجر أنه أمين كل الأمانة . فأياكان مايشترونه . . . من بن أو قماش أو ملح أو سكر أو شاى أو جبن أو عسل أسود . . . . — فان إيب كان يوفيهم حقهم منه كاملا .

وحدث ذات يوم أنه ترك امرأة تعود إلى بيتها من غير أن تستوفى حقها من الشاى ، فعاد ولفّ ربع رطل من الشاى ، ومضى به يسير أربعة أميال إلى كليرى جروف ليحمله اليها ؛ فلما رجع إلى البلدة ورأى الناس يسخرون منه ويهزأون به لم يكن منه إلا أن ابتسم وقال . إنه يرى على أية حال أنه لم يخسر بذلك شيئاً ما ، فقد دعته هذه السيدة إلى عشاء ساخن طيب ، ولولا ذلك لدفع ثمن عشائه تسعة عشر سنتاً كاملة فى مطعم رطلدج .

على أنه قال فى نفسه ، إنه كان يمكن أن يحظى بمشاهدة آن ، آن رطلدج ، ذات العينين الزرقاوين والشعر الذهبى الفاتم . فان نظرة واحدة منها اليه لتكفى لجعل فؤاده يزداد خفقاناً سريعاً ، وأذنيه

تحمران . ولكن كان لابد له أن يضحك . فما عسى أن تراه فتاة جميلة مثل هذه فيه ؟ وهو ذلك الفتى الحقير الساذج الناشىء وسط النبات .

وكان مع ذلك يعلم أن أباها قد أثنى عليه لما سمعه يخطب فى جمعية « المناظرة الجديدة » المنتمى اليها ، فقال السيد رطلدج :

إن هذا الشاب يحسن الكلام ، وكل ما يعوزه ليصل إلى مكانة سامية فى الحياة هو الثقافة .

وقال المدرس صديق إيب : اذا شاء المرء أن يحسن كلامه فعليه أن يدرس النحو ؛ وإذا بايب يسير سبعة أميال ليقترض كتابا فى النحو ، وعكف عليه يدرسه الساعة بعد الساعة طيلة فصل الشتاء حتى ألمّ بقواعد النحو وحذقها .

ولما حل الربيع ، كان قد اتخذ له كثيرين من الأصدقاء ، فجعلوا يشجعونه ، حتى عقد عزمه على أن يجرب حظه فى ميدان السياسة ؛ وأراد أن يرشح نفسه عن مقاطعة سينجامون فى المجلس التشريعى لولاية إلينوى . ولما حل موعد الانتخاب أعطى أصدقاؤه من أهالى نيوسالم أصواتهم اليه ؛ ولكن لما لم يكن فى المقاطعة عدد كاف من الناس يعرفون عنه شيئاً ، فقد فشل فى الانتخاب .

وقبيل أن يحدث هذا ، حدث شىء آخر . فقد قامت حرب « البلاك هوك » . وبلاك هوك هذا ، زعيم كبير من زعماء الهنود عاد برجاله الشجعان ، وعبر بهم نهر المسيسيبى إلى موطنهم القديم فى

إلينوى . فأهاب حاكم الولاية بالناس أن يتطوعوا لطردهم من جديد ؛ فتطوع جاك آرمسترنج ، وتطوع شباب كليرى جروف فى الفرقة التى تكونت فى نيوسالم ؛ وقد سر إيب كل السرور أن اختير قائداً عليهم فأصبح اليوزباشى إبراهام لينكولن .

ولكن ماذا يعلم لينكولن عن قواعد الحرب وعن نظمها ؟ إنه لم يكن يعرف سوى القليل غير « إلى الأمام سرا » ، « قف » ! ولكنه كان حاد الذكاء ويعرف كيف يستغل ذكاءه .

فمضى إلى الحرب فى شمال إلينوى ، وصعد إلى ويسكنسن ، ولم يتوقف إلا بعد أن انهزم بلاك هوك هذا . فعاد إيب إذن إلى بيته وهو يقول إنه قتل الكثير من البعوض ولم يقتل هندياً واحداً .

وفى أثناء ذلك كان متجر أوفوت قد أفلس تمام الإفلاس وأصبح إيب عاطلا عن العمل

فاقترح عليه بعضهم أن يكون حداداً ، ولكن إيب هز رأسه : فالضرب على السندان طول النهار لا يسر له وقتاً ما للاطلاع والقراءة . وحدث أنه صادف فى الجيش رجلا يدعى ستيوارت يشتغل بالمحاماة فتحدث اليه عن القانون . إن هذا ما يود أن يقرأ عنه الآن إذا ما عرف من أين يستعير الكتب اللازمة .

أما العمل فى متجر فيتيح له فرصـــا للاطلاع فى الأوقات التى لا يكون فيها « زبائن » ، وعلى هذا استقر رأيه على أن ينشىء متجراً

بالاشتراك مع فتى آخر يدعى بِرِى . فاقترضا مبلغ ألف دولار ليشتريا بها ما يلزمهما من البضائع والسلع آملين أن يسددا ما اقترضاه عندما تبدأ شركة بِرِى لينكولن فى الرواج والربح . ولكن ذلك لم يحدث بحال من الأحوال ، فبرى لم يكن يهمه الا برميل الويسكى ، وإيب لم يكن يُعنى الا بمطالعة كتب شكسبير وبدراسة القانون ، والتزاور مع الناس الذين يحضرون الى المتجر لتسلم خطاباتهم ، فقد كان فى ذلك الوقت (سنة ١٨٣٢) ناظراً لبريد نيوسالم وهو عمل هين ليس بالشىء الكبير ، ولكنه كان عملا يطيب للينكولن ، إذ يخول له الحق فى أن يقرأ أية جريدة تصل إلى نيوسالم ، وبذلك يقف على مايجرى فى واشنطن من حركات . أما كتب القانون فقد عثر بها مصادفة فى برميل ملىء بكثير من الأشياء العتيقة البالية ، اشتراه ذات يوم بخمسين سنتا اكراماً منه لرجل غريب .

واذ لم ينل المتجر الا عناية تافهة فقد تدهورت أحواله بالطبع وزال . فتوفى برى من جراء السكر ، وترك لينكولن يحتمل وحده عبء الدين كله — الألف دولار ، حتى صار فى موقف أسوأ مما كانه فى يوم من الأيام . واضطر أن يعود الى تفليق الأخشاب والقيام بشتى الأعمال كى يعيش .

وفى الوقت ذاته كان ثمة شاب اسمه ماكنامارظل يربح من متجره أرباحا طائلة ، وكان قد خطب آن رطلدج .

فاكتأب إيب المسكين كل الاكتئاب ، حتى صار يذهب الى مخدعه وهو يخشى أن تطلع عليه شمس الغد . فهل قضى عليه أن يظل دائما حليف الفشل ؟ ألا يمكن أن يكون أبداً شخصا له شأن وقيمة ؟

فخرج ذات يوم يعمل ببلطته ، ويسائل نفسه عما اذا كانت تتاح له فرصة من جديد يجرب فيها حظه . وبينما هو كذلك صادف صديقا له فى الطريق يتجه نحوه .

قال الصديق : أتعرف شيئا يا إيب عن مسح الأراضى ؟ ان كبير المساحين فى مقاطعة سينجهان بحاجة الى مساعد له ؛ فثم ألوف من الناس يقبلون الآن على السكنى فى إلينوى ؛ وبها أفدنة كثيرة من الأراضى يجب أن تمسح ، ومدن كثيرة يجب أن تخطط ، وأميال كثيرة من الطرق يجب أن تنشأ .

فأشرق وجه إيب ؛ لا لأنه يدرى الكثير عن مسح الأراضى ، ولكن هل جهله هذا يقف حائلا دون تعلمه ؟ لا : فليس ثمة شىء يقف فى سبيل تعلم لينكولن ؛ ولا يمكن أن يقف فى سبيله شىء .

فاتجه أولا الى سپرنجفيلد ، وهى على بعد عشرين ميلا ، ليتحدث الى المساح ، وليحصل منه على كتاب فى مسح الأراضى . ثم طلب الى صديقه المدرس أن يساعده فى تعلم الرياضة ، وعكف يدرس الساعة بعد الساعة ، والليلة بعد الليلة ، حتى نحل جسمه ، وغارت عيناه وقلق عليه كل أصدقائه .

ونصح له السيد باولنج جرين أن يستريح ، ولو يوماً واحداً ، وقال له تعال إلى منزلنا واسترح .

ولكن إيب لم يشأ أن يتوقف . ففى زمن قصير كل القصر ، لايزيد على ستة أسابيع ، صار مستعداً للعمل بأدوات المساحة .

فمضى معه جاك آرمسترنج مساعداً له . وقبل أن يغادر المكان ، قامت حنا امرأة جاك بترقيع بنطلون إيب برقع من الجلد . وبينما هى تقوم بالخياطة كان إيب يحمل طفلها (ضَف) ويهزه فى مهده .

طاف إيب بكل أرجاء مقاطعة سينجـــامون ، يخطط الطرق والشوارع ، ويقيم فيها المعالم ، ومتى أنشأ كثيراً من الطرق الصالحة ، واكتسب أصدقاء أوفياء لن ينسوا أبداً أساليبه المضحكة ولا قلبه الرءوف الرحيم .

وفى الخريف أعطاه كل هؤلاء الأصدقاء أصواتهم ليكون ممثلهم عن مقاطعة سينجامون فى الهيئة التشريعية للولاية ، وبذلك تم انتخابه ؛ ومضى فى سنة ١٨٣٤ الى عاصمة هذه الولاية فى فنداليا فى الفترة الأولى من انتخابه .

ولما عاد الى نيوسالم فى فصل الربع بعد هذه الفترة الأولى كان قد خطب الفتاة آن رطلدج الجميلة لتكون زوجة له .

ولم يكن أحد يدرى أين ما كنا مار؛ فقد اختفى فمن عدة شهور مضت قبل آن قبلة الوداع وركب عربة المسافرين فاتجهت به شرقا

بعد أن وعد آن بأنه سيعود سريعاً كى يتمم زواجهما . ولكنه لم يعد ، ولم يكتب اليها .

فلما نظرت آن الى إيب المخلص الشفيق رأت فيه ما لم تكن رأته من قبل ، فوهبته قلبها وبادلته حباً بحب . إنه لم يشعر قط بمثل السعادة التى شعر بها فى أمسيات هذا الصيف وهو يضع خططه للمستقبل .

ولكن آن توفيت فى شهر أغسطس . وكانت وفاتها ضربة تكاد تكون أكبر مما يستطيع أن يتحمله ، فألقى بنفسه على قبرها وجعل ينشج ويتنهد ، وصار يسير وحده ليلا على ضفة النهر ذهاباً وجيئة وسط أمطار الخريف ، ولم يجد فى نفسه ميلا الى التحدث الى أحد . وأخيراً مضى الى السيد باولنج جرين ، ونانسى ليقضى عندهما فترة من الزمن ، فعاوناه على أن ينظر الى المستقبل بعين الأمل من جديد .

ثم دخل الشتاء . وعاد هو إلى مكانه فى هيئة الولاية التشريعية ، وكان مشغولا كل الشغل بوضع خطة لنقل عاصمة الولاية الى سبرنجفيلد فى مقاطعة سينجامون ، وقابل البكباشى ستيورات ثانياً ، فشجعه على مواصلة الدراسة حتى يصبح محامياً . وعلى هذا صار إيب يتردد فى الصيف التالى على مكتب ستيوارت فى سبرنجفيلد ليقترض منه كتباً فى القانون . فظل يقترض الكتاب بعد الآخر ، وعكف على الدراسة الشهر بعد الشهر الى أن جاز الامتحان فى النهاية وأصبح له الحق أن يمضى اسمه : السيد إ . لينكولن محام ومستشار قانونى

وبعد مضى ست سنوات كاملة على مجيئه الى هنا سائراً فى الطريق من عند النهر ، حاملا حزمته معه ، غادر إبراهام لينكولن بلدة نيو سالم فى ربيع سنة ١٨٣٧ واتجه الى مدينة سپرنجفيلد ، ليعمل شريكا فى مكتب المحاماة الجديد الذى افتتح باسم ستيوارت ولينكولن .

ولكن لينكولن كان فقيراً معدماً . وبينما كان راكباً جواداً اقترضه من بعض الناس كان عبء الدين القديم يلازمه ملازمة ظل طويل أسود ؛ وكان كل ما يمتلكه موضوعا فى حقيبتى سرجه . فلما وصل سپرنجفيلد ، لم يكن معه من المال ما يكاد يكفى لدفع إيجار حجرة يقطنها ؛ فلا غرو أن شعر بأن الحظ السعيد قد واتاه ، عندما عرض عليه جوشوا سپيد الصغير أن يشاركه حجرته التى فوق المخزن .

مارى طود

كانت مدينة سبرنجفيلد خير مكان للآنسة الصغيرة مارى طود ، للبحث عن الزوج الذى عقدت آمالها عليه . وكانت هذه المدينة قد صارت عاصمة إلينوى الجديدة ، وزخرت بالسياسيين من الشبان ، الديمقراطيين منهم والأحرار .

وكانت مارى طود فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها ، هيفاء ، جميلة رشيقة ، تعرف على وجه التحديد ماتريد . وقد حضرت فى سنة ١٨٣٩ من لكسنجتن من أعمال كنتكى حيث كان أبوها روبرت طود رئيساً للمصرف بها . ولكن مارى قالت :

«إن الرجل الذى أختاره زوجا لى سيكون رئيساً للولايات المتحدة ،

وذلك ما كانت تقوله للتلميذات فى المدرسة ، وهو ما قالته لأختها اليزابيث حتى قبل أن تفتح حقائبها ، أو تحل خيوط قبعتها المصنوعة من « التفتاه » ، وما إن نزلت هـــذه الفتاة من عربة المسافرين العامة حتى أعلنت رغبتها وأفصحت عن مطمحها الذى تصبو اليه .

جاءت مارى إلى سبرنجفيلد لتعيش مع أختها وزوج أختها السيدة والسيد ادواردز اللذين يملكان خير منزل فى المدينة ، وهو منزل مشيد بالطوب الأحمر وله مدخل فسيح يدور حوله ، ونوافذ عالية ذات ستور طويلة فضفاضة ، وأرضه مفروشة ببسط مرسوم عليها ورد

أحمر . لقد كان بيتا جميلا بالاضافة إلى سپرنجفيلد ، ومع ذلك لم يكن بالذى يرضى مارى .

فالبيت الوحيد الذى ترضى أن تعيش فيه هو البيت الأبيض فى واشنطن . فكانت تحلم به ، وبالثياب الفاخرة التى ترتديها ، حينما تقف عند إحدى نوافذه الطويلة التى فى الدور الأعلى مساء يوم من أيام الشتاء تضع وردة حمراء فى شعرها .

وكانت كذلك ترقب شاباً ، جاء يصعد فى الممشى المغطى بالطوب الأحمر ، ليزورها . وهو شاب نحيل الجسم ، وقصير كل القصر ، ومع ذلك فلم يكن يخفى على من يرى مشيته أنه كان يشعر بأنه ضخم وقوى .

ذلك هو استيفن دجلاس ، شاب فى الحزب الديمقراطى ينتظر له مستقبل زاهر .

وكانت مارى قد قابلته مرة ورقصت معه فى مرقص كبير فى بداية الموسم ، وقد اختارته من بين أمثاله بوصفه أحد اثنين سياسيين يحتمل كل الاحتمال أن ينجحا .

اما الآخر فهو السيد إبراهام لينكولن من الأحرار ، وهو لا يكاد يعرف كيف يرقص ، إلا أن له طريقة غريبة ، حتى أن الفتاة كانت تزداد له حباً كلما جاء لزيارتها .

وقالت لها أختها ذات مساء وهم يتناولون الغداء : ولكن أرجو

ألا تكون عندك أية فكرة عن التزوج به ، فهو لا يناسبك بحال من الأحوال .

وقال لها زوج أختها : لاتحفلى به يا مارى ، فأصله كما تعلمين من قوم فقراء ، لا يقر لهم قرار ، من حُثالة البيض . وهو لا يعرف حتى أن يقرأ أو يكتب .

فبرقت عينا مارى . إذ ليس لأحد أن يقول لها ماذا يجب عليها أن تفعل . ان إبراهام لينكولن حاضر الليلة نفسها لزيارتها ، وقد عقدت عزمها على أن تتزوجه ، ثم قالت : ذلك لأنى أرى أنه سيكون رئيساً للولايات المتحدة يوماً ما .

وبعد أن فرغت من هذا القول انتقلت مسرعة وخرجت من الغرفة ، ثم صعدت إلى الدور الأعلى لتضع فى شعرها الكستنائى الناعم تاجاً كاملا من الورد الأحمر .

وفى الوقت نفسه كان إبراهام لينكولن فى حجرة منخفضة السقف على سطح مخزن صديقه جوشوا سبيد يأخذ زينته ويتهيأ لهذه الزيارة ، فكان مشغولا بطلاء حذائه الطويل ، ويمشط شعره الأسود ، وينظر وجهه فى مرآة غير مستوية السطح ، ويضع على رأسه قبعته السوداء الجديدة العالية .

وقال فى نفسه : إنه لفتى عادى جداً ، وأقل من أن يزور سيدة صغيرة جميلة مثل هذه ، ولكنه مع ذلك مضى فى سبيله إليها .

وبعد قليل كان فى البيت ذى الطوب الأحمر يجلس قبالة الآنسة مارى فى البهو، وقد فتن بها أيما افتتان . وكانت هى مشرقة الطلعة مرحة ، ثم مال إلى الأمام قانعا بأن يراقبها وهى تتحدث اليه حديثاً ذا شجون ؛ فتحدثه فى اللغة الفرنسية والهندسة والسياسة ؛ وقبل أن يخطر الأمر بباله وجدا نفسيهما جالسين متجاورين على المقعد الطويل المصنوع من خشب الورد ، وقد اتفقا على الزواج .

ولكن لم يلبث أن تولاه القلق واستولى عليه الانزعاج . إذ كيف يستطيع أن ييسر لها السعادة يوما ما ؟ انه لن يستطيع ذلك لما فيه من الفقر والحاجة ، ولذا ظل قلق البال غارقا فى أفكاره ليل نهار . ولقد حاول مرة أن يقول لها إنها قد أخطأت سبيلها فى رضاها بالزواج منه ولكنها بكت وأبت أن تصغى إلى ما يقول ، فأضحى بائسا تعسا وظلا عدة شهور لا يتقابلان .

وذات صباح فى شهر نوفمبر عزما على الزواج فجأة وعلى عجل ، فطلبا الواعظ القسيس ، ودعوا جماعة صغيرة من الأصدقاء وتزوجا هذا المساء نفسه فى بهو آل ادوارد على ضوء المصابيح .

فى الرابع من نوفمبر سنة ١٨٤٢ أصبحت الآنسة مارى طود زوجة ابراهام لينكولن ، ولكن عليها أن تنتظر ثمانية عشر عاما قبل أن تعرف أن الرجل الذى اختارته زوجا لها سيصبح حقا رئيسا للولايات المتحدة ؛ فيبدو أن الحظ قد فارقه طيلة هذه السنوات الطوال

المظلمة ، على حين كان حظ استيفن دجلاس فى صعود وازدياد .

وفى السنة التالية نفسها ، سنة ١٨٤٣ ، تم انتخاب هذا الديمقراطى الشاب الواثق من نفسه عضواً فى مجلس النواب فمضى مرحا إلى الكونجرس وإلى عاصمة الأمة .

وكانت مارى وإبراهام لايزالان يسكنان هذه السنة فى حجرة واحدة بفندق جلوب حيث ولد لهما ابنهما « بوبى » وسمياه على اسم جده طود : روبرت طود لينكولن .

وفى السنة التالية ادخرا من المال ما يكفى لشراء بيت صغير أبيض فى طرف المدينة ، وكانت مارى تقوم بتنظيفه ، وبطهى الطعام ، وترعى شئون طفليها ، إذ سرعان ما قد صار عندها ولدان — وكانت تخيط ملابسها ، وعملت ما فى وسعها لتجعل زوجها غير المرتب فى زيه يحتفظ بسترته ورباط رقبته ، ونالها من جراء ذلك الكثير مما كان يثبط همتها أحيانا ويزيد متاعبها حتى كادت أن تصرخ . أما لينكولن فكان يقوم بتقديم العلف للحصان ، ويحلب البقرة ، ويجرف الثلج ، ويشذب الكلأ ، ويقطع الأخشاب ويُعنى بشئون عمله فى المحاماة ويحاول أن يكون صبوراً مع مارى .

وأخيراً انتخب سنة ١٨٤٦ عضواً فى الكونجرس ، ولكن فى السنة عينها أصبح ستيفن دجلاس عضواً فى مجلس الشيوخ ؛ وهكذا ظل دجلاس يتقدم إيب ويسبقه بخطوات واسعة .

ومضى لينكولن إلى واشنطن راجيا أن يوفق إلى الإتيان بأعمال ترضى الأحرار الذين انتخبوه فى إلينوى، ولكنه بدلا من ذلك ألقى خطابا استثارهم وجعلهم يستشيطون غضبا عليه إذ قال لهم إن الحرب القائمة وقتئذ فى سنة ١٨٤٨ بين الولايات المتحدة والمكسيك حرب خاطئة. وكان يعتقد مخلصا انها كذلك، ولكنهم من أجل هـــذا راحوا ينبزونه بألقاب فظيعة حتى بلغ بهم الأمر أن قالوا عنه إنه خائن.

وعلى هذا عاد إلى بيته بعد انقضاء مدته. فألقى حقيبته المصنوعة من السجاد فى ردهة البيت الصغير، وعلق قبعته السوداء العالية على مشجب فى الردهة — كل ذلك وهو حزين كسير القلب.

وقال للسيدة لينكولن انه يرى أن عمله فى السياسة قد انتهى.

ثم قال: إلا إذا أردت أن تذهبي معى إلى أورجون حيث يمكن أن أعين حاكما عليها.

فصاحت مارى بصوت حاد مرتفع: أورجون! أليست سبرنجفيلد ميتة موتاً كافيا؟ ما الذى يدعونا إلى الانتقال إلى أورجون لندفن أنفسنا فيها؟.

فقـــال صابراً: حسنا يامولى حسنا؛ انما هو اقتراح عرضته فلنبق هنا إذن.

المحـــامى

وفى صباح اليوم التالى كانت شمس الصيف حامية ولينكولن يسير إلى مكتبه؛ وكانت الريح تهب من المراعى فتسفى التراب ، دوائر دوائر عبر ميدان البلدة ، وسلالم دار المحكمة ، وجعلت اللافتة ذات الحروف الذهبية المكتوب عليها :

لينكولن وهرندن

تتأرجح فى الهواء لما مر لينكولن تحتها ليصعد على السلالم الخشبية . ثم وقف لحظة فى طرف ردهة ضيقة وحرك بيده مقبضا قلقاً غير ثابت ، فانفتح الباب وظهرت حجرة صغيرة قابضة للنفس لا ينفذ منها النور الا من نافذة قذرة ، وكان بها مائدة ألقيت عليها أكوام من الصحف فى فوضى بالغة .

وجلس شاب منهمك فى قراءة إحدى هذه الصحف ، فرفع نظره ثم وثب واستوى واقفاً على قدميه . وكان هذا الشاب هو وليام هرندن شريك لينكولن .

فقال ، لينكولن ! السيد لينكولن ! لقد عدت . هأنت هنا !

فقال لينكولن الرجل الأسن : نعم هأنذا يابيلى !

ولكنه رأى أنه ليس من العدل فى شىء أن يبدأ من حيث فرغا

فقد كان بيلى يقوم بعبء العمل كله فى البلد ؛ على أن بيلى كان ينظر إلى الأمر من وجهة أخرى .

ألم يعاونه المستر لينكولن على أن يصير محاميا ؟ أيمكن أن ينسى أبداً كيف أنه كان شاكراً كل الشكر عندما طلب منه السيد لينكولن أن يكون شريكا له ، ولا كيف كان فخوراً لما رأى اسمه يلمع بحروف ذهبية مرقومة على هذه اللافتة ؟

ان مثل هذا الإخلاص العميق لا يمكن أن يقاوم ، فبدت ابتسامة لطيفة على وجه لينكولن الحزين وتنهد تنهداً عميقا عندما رفع قبعته السوداء العالية ، ليلقيها على المائدة مقلوبة ، ثم وضع فيها خطابا ، وكان بها كالعادة عدة مظروفات أخرى وعدة أوراق وضعهـــا فيها زيادة فى الحرص عليها .

ثم خلع سترته الطويلة المصنوعة من الكتان ، وفك رباط رقبته وجلس ليستريح على مقعد كبير من الخشب مائل نحو الحائط ميلا كبيراً ومستنداً اليه .

وعندئذ أصبح على استعداد لأن يقص ما فعل ، ويحكى عما رأى فى الشرق ، ويجيب عن أسئلته الكثيرة المنوعة .

فكيف كان شكل واشنطن ؟ ومبنى الكابيتول ؟ هل قابل دانيال وبستر وهنرى كلاى ؟ وما كان رأيه فى شلالات نياجارا ؛ وبُسطن وفيلادلفيا ؟ والسكك الحديدية التى تنشأ ؟ وهل حلت محل

عربات المسافرين العامة تماما فى الشرق ؟ والأراضى الجديدة التى حصلت عليها الولايات المتحدة من المكسيك — يقصد كاليفورنيا وكل الجنوب الغربى العظيم . هل سيسمح بالرقيق فى هذا الإقليم الجديد أم لا ؟ وقبل كل شىء ماذا جرى فى أسواق الرقيق التى فى واشنطن ؟ ألم تكن ثم وسيلة للتخلص منها ؟ أو بالأحرى للتخلص من الرق تخلصا تاما ؟

ثم قال هرندن فى عزم وجد : « امحوه ، ألغوه ، تخلصوا منه ! هذا ما يجب أن يعمل ، فأنصار الإلغاء على حق مطلق ! »

فرد عليه لينكولن فى رفق وهدوء « لا ! انى لا أوافقك . الرق خطأ لاشك ، ولكنى أرى اننا إذا تركناه وشأنه حيث هو فانه سيزول تدريجيا فالذى علينا أن نعمله هو منعه من أن ينتشر إلى أى أقليم جديد »

ثم لبث صامتا برهة ينظر من النافذة ، فان شيئاً قاله ذكره بقصة مضحكة سبق أن قصها على الناس ، وهذه بدورها ذكرته بقصة أخرى غيرها . ثم خطر له أن ميعاد الغداء قد قرب وأن زوجته لابد أن تكون فى انتظاره ، ذلك إلى أنه قد وعد أن يلاعب الصغار . وعلى هذا فخير له أن يتسلل ويعود غداً صباحاً ليقف على مجرى الأحوال .

ثم مال بنفسه إلى الأمام وألقى قدميه على الأرض محدثا بهما ضجة غير قليلة وقال « لنفسه : اعمل على أن تكون محاميا قديرا ، أقدر مما أنت الآن . »

فهذا هو أكبر شيء تعلمته من ذهابي إلى الشرق ؛ فهؤلاء الناس الذين فيه متعلمون خيراً منا ، ومدربون خيراً منا وفي استطاعتهم أن يبرهنوا على أية نقطة برهنة لاتدع ظلا من الشك لأحد . ولسوف يأتي هؤلاء الرجال إلى هنا يوما ما ، وسأكون أنا مستعداً لملاقاتهم ، وسأمضي واستحضر كتابا في الهندسة وأدرسه وأحاول تدريب عقلي تدريبا يجعله يفكر تفكيرا واضحا مستقيما مثلما يفكرون .

وبينما كان على وشك أن يعود إلى الجلوس ، إذا بالباب ينفتح فجاءة . وها هو بوبي جاء ليخبره أن أمه تقول له إن عليه أن يحضر إلى البيت فوراً فالغذاء قد جف كله وفسد .

وأخيراً انقضت أيام الصيف الحارة يوما إثر يوم ، وجاء شهر سبتمبر . وذات صباح كان بوبي وأخوه الصغير جالسين تحت الشجرة التي عند البيت وبيد كل منهما تفاحة كبيرة صفراء يأكلها ، على حين كان ابوهما يسرج « توم العجوز » في العربة ذات المقعد الواحد ، وألقى بحقيبته القديمة البالية المصنوعة من السجاد ، وشمسيته الباهتة اللون ، وطلب من كل من الطفلين « حضنا » كبيراً وقبلة ثم مضى بسبيل ما كان يسميه « ركوب الدائرة » .

وأيا كان مدلول هذه العبارة فأنها رنت في آذانهم على أنها شيء مثير حقا ، وكذلك كانت في نظر والدهم .

« فركوب الدائرة » جزء من عمله في المحـــاماة ، وهو عمل كان إبراهام لينكولن يحبه أكثر من أي عمل آخر .

فى المراعى المكشوفة التى تحت قبة السماء الواسعة مجال كبير من حيث المكان والزمان لمن يريد أن ينطلق فيهما بروحه وبعقله .

« فركوب الدائرة » معناه فعلا الطواف فى دائرة من البلدان الفقيرة مع القاضى دافيد المرح السمين ومع غيره من المحامين الأصدقاء . وكانت كل بلدة مركزاً لمقاطعة من مقاطعات ذلك الجزء من إلينوى . فلم يكن فى بلدة واحدة فقط ، ولا فى مركز واحد ، من الأعمال ما يكفى لشغل وقت المحامى ، فلا غرو أن كان القاضى والمحامون يطوفون فى كل ربيع وخريف بالبلاد يعقدون فيها محكمة للبت فى القضايا

وفى المساء يجتمعون فى حجرة من حجرات الفندق الصغيرة يستمتعون بمجالسة بعضهم بعضـــا ، ويقضون نصف الليل فى قص الحكايات .

وكانوا يحدثون فى كل مدينة يحلون بها حركة أشبه بما تحدثها فرقة من فرق التمثيل المتجولة .

وكانت عبارة « جاء لينكولن » تنتشر بين أهالى البلد بسرعة لأنه كان محبوبا ، فكانت قاعة المحكمة مزدحمة دائما كلما جاء ليترافع . ففى استطاعته أن يستبكى المحلفين أو يضحكهم ضحكا عاليا . هذا ، وكان هو نفسه منظراً خليقا بالرؤية عندما تراه يذرع القاعة ، خالعا سترته ، واضعا إبهامه فى الحمالة المفردة التى تحفظ بنطلونه المجعد ، ويتكلم كأن مصير موكله متوقف على كل كلمة ينطق بها .

وكان كثير المفاجآت . ففى اللحظة الحرجة تراه يدفع بشىء لم يكن يتوقعه أحد ، مثل التقويم فى قضية « ضف » آرمسترنج

و«ضف» هذا هو ابن جاك ، صديق لينكولن القديم ، وهو ذلك الطفل نفسه الذى كان إيب يهزه فى مهده . فقد اتهم بالقتل وبدت الأدلة كلها ضده ، وكان أبوه قد توفى ولكن أمه حنا المسكينة حضرت المحاكمة فى قاعة المحكمة لابسة قبعتها الشمسية القديمة . وكانت كلما وقف شاهد ليدلى بشهادته توترت أعصابها وأخذ منها القلق كل مأخذ .

قال أحد الشهود : لقد شاهدته عندما ارتكب فعلته ، فقد كان القمر مضيئا وكل شىء واضحا . كان الوقت اشبه بالنهار !

فسأله لينكولن هل أنت متأكد من هذا ؟

فأجاب الشاب بأنه متأكد وأقسم على ماقال .

فاستخرج لينكولن من جيبه تقويما صغيراً من الورق وفتحه عند الشهر المطلوب وأظهر أن فى تلك الليلة المعهودة لم يكن ثم قمر ، ولجأ إلى المحلفين يكسب عطفهم فبرءوا ساحة الفتى .

وكان مؤسسو إحدى البلاد الجديدة معجبين كل الإعجاب بلينكولن فطلبوا منه ذات يوم أن يسمح لهم باطلاق أسمه على البلد .

فقال إن ذلك فخراً لى وشرفا ، ثم أردف ذلك بقوله وعلى فمه ابتسامة عريضة — ولكنى أنصح لكم بألا تفعلوا ، فلست أعلم شيئا اسمه لينكولن بلغ شأنا يذكر .

ثم ابتسم ؛ ولكنه ظل أياما كثيرة ، وتلك الفكرة المظلمة السوداء تطيف به وتدفعه إلى الارتطام فى مهاو من الكآبة والكرب الداعى إلى اليأس والقنوط . أليس له أمل بعد ذلك كله ؟ أليس أمامه أى مستقبل زاهر ؟

فها هو ستيفن دجلاس قد أصبح عضواً فى مجلس الشيوخ ورئيسا للجنة الأراضى الجديدة ، وهى لجنة لها أهمية عظيمة ؛ وها هم الناس يتحدثون عنه على أنه رئيس الولايات المتحدة .

أما هو — إبراهام لينكولن — فما زال محاميا مسكينا من محامى الأرياف ، لايكاد أحد خارج ولايته يعرف عنه شيئا .

الرئيس

ذات يوم من أيام الربيع كان لينكولن فى بلد من تلك البلاد الصغيرة القريبة من دائرة طوافه فوردت الأنباء من واشنجطن بأن السناتور ستيفن دجلاس سيعود إلى موطنه إلينوى. وكان أصدقاء هذا الشيخ الذائع الصيت الحميمون يلقبونه « بالعملاق الصغير » ويقولون عنه إنه حضر ليشرح لأصدقائه المعجبين به قانونا معينا ، وهو قانون بشأن الرق ، أقره الكونجرس عام ١٨٥٤ قبيل أن تصبح كنساس مستعدة لأن تكون ولاية ، وكان السناتور دجلاس نفسه هو الذى اقترح هذا القانون وهو فى رأيه قانون صالح كل الصلاح .

ولكن لينكولن لم يوافقه على هذا الرأى. فطيلة ذلك المساء كان المحامون فى حجرة القاضى الصغيرة بالفندق يتناقشون فى هذا القانون الجديد ، وفى مشكلة الرقيق الفظيعة ويتناولونها من شتى نواحيها. وهى مشكلة كانت تبدو لانهاية لها .

فكلما انضمت ولاية جديدة إلى ولايات الاتحاد عادت هذه المشكلة إلى الظهور. ولما كانت الولايات المتحدة كلها شرق نهر المسيسبى، لم يكن حل هذه المشكلة بالشىء العسير ، فنهر الأوهايو كان يفصل الولايات التى يباح فيها الرقيق عن الولايات التى تحرمه . فكل ما كان على الكنجرس أن يفعله كلما انضمت ولاية جديدة ، هو أن يتأكد من عدد ولايات الرقيق وعدد الولايات المتحدة .

ولكن الولايات المتحدة قد امتدت الآن الى ماوراء المسيسيبى حيث ينتهى نهر الأوهايو وبذلك زال خط التقسيم القديم ؛ وعلى هذا فكلما عرضت المشكلة ازدادت معالجتها صعوبة، وكلما حاول الكونجرس أن يرضى الفريقين ، اللذين يطالب أحدهما بالمزيد من ولايات الرقيق ويعارض ثانيهما فى الاستكثار منها ، كانت النتيجة أن أحداً لم يكن راضيا ، ووقع اللوم كله على الكونجرس .

وعندئذ قال المستر دجلاس لم يتعب الكونجرس نفسه أكثر من ذلك إذن ؟ دعوا أهل كل ولاية يقررون بأنفسهم ان كانت ولايتهم ستكون ولاية رقيق أو ولاية حرة . وهذا هو القانون الجديد. وقد جرب فى الولاية التى تسمى الآن « كنساس الدموية » بسبب ما أحدثه ذلك من القتال وإراقة الدماء بين الذين استقروا فى كنساس هذه . وقال لينكولن إن هذا الأمر نفسه سيحدث حتما حينما يطبق هذا القانون .

وبعد أن غادر المحامون الحجرة بمدة طويلة ظل لينكولن يتحدث ويفكر فى هذا القانون إلى أن غلب النوم على القاضى واستغرق فى وادى الأحلام . أما لينكولن فلم يستطع النوم ، بل ظل جالسا على حافة سرير القاضى وهو مرتد قميص نومه الأصفر الطويل يقلب المسألة فى فكره ويدرسها من شتى نواحيها .

فكيف تحل مسألة الرقيق المستعصية هذه حلا نهائيا ياترى ؟ إنه

لا يدرى . ولكنه يعلم أن الأمة لا تظل على الدوام ، ونصفها ولايات رقيق ، والنصف الآخر ولايات أحرار ؛ على حين ان الواجب ان تكون كلها نوعا واحداً ، فاما هذا وإما ذاك ؛ فلا جدوى من التهرب من هذه المشكلة اكثر من ذلك ؛ فيجب أن تعرض ، ويجب أن نجد لها حلا .

ولما طلع الفجر واستبان من النافذة ، كان إبراهام لينكولن قد اتخذ قراره العظيم الذى كان نقطة التحول فى حياته .

ذلك أنه تحدى ستيفن دجلاس أن يدافع عن القانون الذى سبق له أن أيده وناصره ، وذلك فى عدة مناظرات تعقد بينهما .

ولم يتردد السيد دجلاس فى قبول التحدى ؛ فماذا يخشى من هذا المنافس القديم الذى تخلف عنه الى هذا المدى فى ميدان السياسة ؟

وجرت المناظرات فى صيف سنة ١٨٥٨ فى سبع مدن صغيرة فى ولاية إلينوى ، وكانت كل مناظرة تزيد فى تهيج الشعب وتحمسه . فتقاطرت الجماهير من جميع البرارى المحيطة ، تغشاهم سحب من التراب . جاءوا على ظهور الخيل ، وفى عربات تجرها الثيران ، وفى عربات السفر العامة ، وبالسكك الحديدية الجديدة بحسب المدى الذى وصلت اليه . وكانت هذه هى الوسيلة التى جاء الشيخ المحترم السيد دجلاس بها ، بوصفه ضيفا على السكة الحديدية . أما لينكولن فكان ينتقل من بلد الى بلد بأية وسيلة يستطيع أن ينتقل بها .

وكانت الفرق الموسيقية تعزف فى كل بلد ، والباعة المتجولون

يتجرون فى الهـــدايا وأنواع التذكارات ، والجماهير تتزاحم لرؤية ستيفن دجلاس العملاق الصغير وهو يواجه « إيب » « قاتل العملاق » فى معركة كلامية . فتقدم المتصارعان إلى المنصة الخشبية المغشاة بالقماش الأحمر والأبيض والأزرق ؛ وكان أحد المتصارعين قصيراً كل القصر يتلوه مناظره الآخر الطويل الفارع الطول .

وكان السيد دجلاس يتقدم أولا الى المنصة فيحيي الهـــاتفين والمنصتين له بأن ينحنى لهم انحناء رشيقا ، ثم يميل رأسه نحو الخلف ، فتجرى الألفاظ من فمه متدفقة رنانة ، وهى ألفاظ حرص فيهـا كل الحرص على ألا يذكر شيئا عن الرقيق قد يغضب أحدا من الذين يحتمل أن يعطوه أصواتهم فى الانتخابات القادمة . فان هذا ما كان يفكر فيه فعلا .

ثم يصعد لينكولن بساقيه الطويلتين ويتقدم ؛ وبدأ صوته فى البداية عاليا ، وحاداً ، ولـكن الألفاظ التى نطق بها كانت ألفاظا بسيطة يسهل على كل امرىء أن يفهمها ، وكانت قوية سداها ولحمتها الإخلاص ، وتصيب مشكلة الرقيق فى الصميم ، تلك المشكلة التى قسمت الولايات المتحدة بعضها على بعض . فكل ما كان يفـكر فيه هو انقاذ الاتحاد ، لا ما سيحدث له هو فيما بعد !

وبينما كان دجلاس يصغى الى ما يقول تولته الدهشة فى البداية ، ثم الاضطراب ، فالغضب فالفزع ؛ وشعر بأنه قد أحرج ، ووقع فى الحبالة ، وارتطم .

سؤال واحد مباشر لم يستطع التخلص منه ، ومع ذلك لم يتمكن من الإجابة عنه لا سلبا ولا ايجابا ، خشية أن يغضب نصف الحزب الديمقراطى ، فهو لم يجسر على إغضاب أعضاء حزبه الديمقراطى من أهالى ولاية إلينوى الحرة . ومن ثم فقد خسر بكلمة واحدة تأييد جميع الديمقراطيين فى الجنوب الذين كانوا يؤمنون بالرقيق .

هذا ، وقد نشرت القصة الكاملة لمناظرات لينكولن ودجلاس فى الجرائد فى كل أنحاء البلاد .

وأخذ الناس يتساءلون عمن يكون هذا الرجل ابراهام لينكولن الذى فى إلينوى ؛ فقد كانوا يودون أن يسمعوه يتكلم ، فتوالت عليه الدعوات من قريب ومن بعيد حتى وصلته من مدينة نيويورك ذاتها .

ثم تكون حزب جمهورى جديد من أولئك الذين يريدون أن يعملوا على وقف انتشار الرقيق ، وحلوا محل حزب الأحرار القديم ، واختار هذا الحزب الجديد إبراهام لينكولن فى سنة ١٨٦٠ ليكون مرشحه لرياسة الولايات المتحدة ؛ وعقد مؤتمر فى شيكاجو نقلت اليه فلق الأشجار التى سبق أن أعدها لأنشاء سور حول أرض هذا المؤتمر ثم جمعت فلق أشجار أخرى وشحنت فى السفن إلى مختلف انحاء البلاد ، عندما قامت المعركة الانتخابية لجعل إيب الأمين مفلق الأخشاب رئيساً . ولما ظهرت نتيجة الانتخابات فى ٤ نوفمبر اتضح أنه هو الذى فاز فيها .

وانهزم ستيفن دجلاس ، لأن الديمقراطيين الجنوبيين انفصلوا وأيدوا رجلا آخر، فكان ذلك أشبه ما يكون بحزمة العصى التى وردت فى إحدى أساطير إيسوب ، والتى لم تكن تنكسر الا بعد أن انحلت وتوزعت . فلو لم يشق الحزب الديمقراطى قسمين لظل قويا ولفاز .

أصبحت البلاد الآن فى ضجة وحركة كبيرة ، فقد غضب الديمقراطيون الجنوبيون وجُن جنونهم من أن ينتخب « جمهورى أسود » — وكذا كانوا ينعتونه — رئيسا للاتحاد ، فهددت الولايات الجنوبية بالانسحاب من الاتحاد اذا عاش حتى يقسم اليمين فى الرابع من مارس . ووصلت لينكولن خطابات يهدده فيها مرسلوها بالقتل اذا تجرأ وترك سبرنجفيلد قاصداً واشنطن . فبدت هذه الشهور الأربعة من نوفمبر الى مارس طويلة فى نظر لينكولن لانهاية لها .

ولكن الأمر لم يكن كذلك فى نظر السيدة لينكولن ؛ فليست الأربعة الشهور بالزمن الطويل الكافى لتفصيل الملابس الجديدة والقبعات والشيلان وأنواع الريش والورد وغيرها مما سترتديه وتتجمل به أخيراً فى البيت الأبيض فى واشنطن .

وفى يناير نزل لينكولن فى الولاية ليزور سيدة عجوزاً ، وينظر الى عيليها ، ويشعر بذراعيه تطوقانه مرة أخرى . فقد توفى أبوه ، ولكن « ساره لينكولن بوش » خير صديق له ، كانت لاتزال على قيد الحياة بعيش فى الكوخ القديم . فما أسعدها برؤية «ولدها» هذا من جديد !

على أنها هى الأخرى كانت تشعر بالحزن فى قرارة نفسها بشكل ما ؛ فرؤيتها إياه هذه ستكون آخر مرة تراه فيها .

وقبل أن يغادر لينكولن سبرنجفيلد بيوم واحد ذهب الى مكتب المحاماة ليودعه .

فقال « يابيلى ، دع اللافتة القديمة على ماهى عليه حتى اذا ماعدت ثانية عملنا معاً بادئين من حيث تركنا العمل »

وأخيراً حل شهر فبراير ، وجاء ذلك الصبـــاح الذى آذن بساعة الرحيل .

وكانوا خمسة : روبرت ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره وكان ذاهبا ليلتحق بجامعة هارفارد ؛ والولدان الصغيران ، وكانا ذاهبين الى واشنطن ؛ ووليام ، وكان فى الحادية عشرة ، وتاد (مختصر تادپول) واسمه الحقيقى توماس !

وكان صباحا باردا ؛ وخيم الضباب والدخان الصاعد من مدخنة القاطرة الصغيرة الشبيهة بالقمع — خيم على الجمهور المحتشد فى محطة السكة الحديدية ، ووقف لينكولن على الرصيف الخلفى ، وعليه قبعته العالية ، وعلى كتفه شال . وقال من صميم فؤاده ، وهو ينظر الى تلك الوجوه الحبيبة اليه :

« أصدقائى ! لا يستطيع إنسان أن يقدر شعورى بالحزن والأسى على هذا الفراق ، فانى مدين بكل شىء لهذا المكان ولحنوّ هؤلاء

الناس .... وإنى لأغادره الآن .... وأمامى واجب أشق مما كان على عاتق واشنطن .... لنثق بالله الذى فى قدرته أن يكون معى ، ويظل معكم ، وفى كل مكان ، يُفيض على الناس الخير ؛ ولنأمل ، ولنثق أن كل شىء سيكون مع ذلك على ما يرام . وإنى لأتركم فى رعاية الله ، وأرجو أن تستودعونى اياه فى صلواتكم .... أودعكم وداعا قلبيا » .

وصفر القطار ، ثم أخذ يتحرك . وبقى الشيخ الطويل الواقف على الرصيف يصفر شيئا فشيئا حتى اختفى القطار وسط الضباب .

وقبل أن يصل لينكولن الى واشنطن كان قد حدث ما يخشاه فى فبراير سنة ١٨٦١ ، فقد انقسمت الولايات المتحدة بعضها على بعض .

فانفصلت كارولينا الجنوبية وست ولايات أخرى من ولايات الجنوب ، واختارت جيفرسن دافيد رئيسا عليها ، وأنشأت دولة جديدة باسم الولايات المتحالفة الأمريكية .

وحدثت تهديدات كثيرة باغتيال حياة لينكولن ، فأقيمت على طول الطريق جنود للحراسة يوم تنصيبه فى واشنطن ؛ ووقف جندى عند كل نافذة فى مبنى الكابتول نفسه ، كما وقف خمسون جنديا تحت المنصة الموشاة بالأعلام والتى أقيم عليها الاحتفال .

وسار السيد بوكانان الرئيس السابق الى مقعده يحيط به غيره من موظفى الحكومة ، وكان فى حالة عصبية ، مضطربا ؛ على حين بدا

لينكولن هادئا رابط الجأش . وكان همه الوحيد ، عندما وقف يتكلم، أن يعرف أين يضع قبعته العالية ، فتناولها منه شخص كان واقفا خلفه وحملها له . ولم يكن ذلك الشخص غير ستيفن دجلاس نفسه !

ووجه لينكولن خطابه أساسا الى مواطنيه غير الراضين ، طالبا منهم أن يفكروا فى هدوء ، وألا يعملوا شيئا فى عجلة وتسرع . وقال فى ختام كلامه — لن تكون هناك حرب الا اذا بدأتموها أنتم .

ثم نهض كبير القضاة ، وكان شيخا عالى السن محنى الظهر ، وفتح الإنجيل ، ورفع لينكولن يده اليمنى ورددد وراءه الكلمات الخطيرة الآتية :

« أقسم أن أقوم بعمل رئيس الولايات المتحدة بأمانة وإخلاص ، وأن أحافظ جهدى على دستور الولايات المتحدة وأحميه وأدافع عنه . »

فهذه اليمين التى أقسمها الآن الرئيس السادس عشر هى التى أقسمها لأول مرة جورج واشنطن . وكانت الثلاث عشرة ولاية قد اتحدت وكونت أمة جديدة . أما الآن فهذه الأمة قد انقسمت بعضها على بعض بعد أن صار عدد ولاياتها أربعة وثلاثين !

فهل يستطيع الرئيس الجديد هذا أن ينقذ الاتحاد العظيم ؟ — هل سيجد فى نفسه الشجاعة والإيمان ليحميه ، ويحافظ عليه ، ويدافع عنه كما وعد أن يفعل ؟ .. تلك هى المهمة الخطيرة التى ألقيت الآن على عاتق إبراهام لينكولن .

وبعد الاحتفال ركبت الأسرة وساروا فى طريق بنسلفانيا الى

البيت الأبيض . حيث تولى السيد بوكانان تقديمهم الى هيئة الموظفين

وما إن دخل تاد وويلى البيت حتى تهيجا وجعلا يجريان على السلالم صاعدين نازلين من الدور الأعلى الى « البدروم » ، وقابلا كل خادم وتحدثا اليه ، وكل رجل من رجال الشرطة السرية ، وكل رسول ، وحارس . وهرعا الى المتحف ليشاهدا نبات السوسن وحوض السمك الأحمر . وأسرعا الى الدور الأعلى ، ودخلا كل حجرة فيه ، وقفزا على السرير وجعلا يتقلبان عليه ، ونزلا على « الدرابزون » ثم عادا وصعدا السلالم ليلعبا مع والدهم لعبة « الوثبة » !

وقال ويلى ان بابا لا وقت لديه الليلة ليلعب معنا لأنه ذاهب الى المرقص !.

فقال تاد نعم ، وجرى الى مكتب والده ، ووثب على حجره ، وأشار الى صورة قديمة معلقة على « المدفأة » المثبتة بالرخام وسأل من هذا ؟

فأجابته أمه إنها صورة أندرو جاكسون — وهى صورة بالية متشققة ؛ فقد طافت أمه بالبيت كله وقالت : إن المكان جميعه بحاجة ماسة الى الاصلاح ، فالسجاجيد قذرة كل القذارة وأنها ستأمر غدا بخلعها وتمزيقها ثم إحراقها ، كما انها ستأمر باستحضار أثاث جديد ، وبسط جديدة

وفى أول مرقص لها حضرته فى تلك الليلة ، كانت زوجة الرئيس الجديد ترتدى رداءها الأزرق المصنوع من الساتان ، وتضع فى شعرها ريشات من ريش النعام .

وكان السيد لينكولن يلبس قفازا أبيض من الجلد ، السختيان ، وظل يصافح الناس ساعتين متواليتين ، وافتتح الاستعراض العظيم ، ولكنه لم يرقص ؛ فرقص ستيفن دجلاس مع مارى طود لينكولن .

وفى الصباح التالى وهو أول يوم بدأ فيه الرئيس لينكولن عمله ، وصلته أنباء سيئة .

لقد قطعت المؤن عن فورت سمتر ولم يبق بها ما يكفى نحو شهر من الزمان . وفورت سمتر هذه حصن من حصون الولايات المتحدة يقع عند ساحل كارلولينا الجنوبية .

وفى الثانى عشر من أبريل، أطلق الخصوم النار على الحصن وسقط فى اليوم التالى فى أيدى جنود كارولينا الجنوبية .

ونزل علم الولايات المتحدة

وارتفع عليه عَلَمُ المتحالفين

وبدأت الحرب !

وبقلب مكتئب حزين طلب لينكولن خمسة وسبعين ألف جندى للدفاع عن الاتحاد .

وسريعا ما انفصلت أربع ولايات أخرى عن الاتحاد ، ونقلت عاصمتها الى مدينة ريتشمند من أعمال فرجينيا ، لأن فرجينيا كانت قد انضمت الى التحالف .

وهنا على مقربة من نهر البوتوماك عند واشنطن كان علم

التحالف يخفق ! وكان الجنود المتحالفون يتجمعون .

ووقف لينكولن عند النافذة الجنوبية فى مكتبه ، ومنها كان يستطيع أن يرى عبر النهر بمنظاره . فكم رجا ، وكم دعا الله أن يحضر بعض هؤلاء الخمسة والسبعين ألفاً من الجنود الذين طلبهم ليسرعوا الى حماية المدينة ! ومرت الأيام يوما بعد يوم والجنود لم تحضر ؛ ثم لم يستطيعوا الحضور . فقد نزعت قضبان السكك الحديدية ولم يعد ثم مجال لوصول القطر ، وقطعت أسلاك التلغراف فأصبحت واشنجطن معزولة تمام العزل ، وغير محمية . وكاد لينكولن أن يجن . وجعل ينتظر أن يرى جنود المتحالفين يسيرون على القنطرة الكبيرة المقـــامة على نهر البوتوماك .

وقال تاد وهو يندفع داخلا مكتب والده ومعه مكنسة زاعما أنها بندقية — قال : فليأتوا ! فقد أنشأت أنا وويلى حصناً على السطح . فليتأتوا ! فانى وويلى مستعدان لملاقاتهم .

فتبسم لينكولن . ولكنه كان يذرع أرض الحجرة فى الليل ويصلى ويدعو الله لهؤلاء الجنود الشماليين .

وأخيراً أخذوا يحضرون . فوصل عدد قليل منهم أولا ، ثم وصلت فرق أكثر وأكثر وجعلوا يمرون ويمرون ... الفرقة بعد الفرقة ... وكانت حركات مدافعهم وبطرياتهم تسمع وهى تجرجر فى الشوارع . وفى آخر مايو كانوا فى فرجينيا يعسكرون عند الطرف

الآخر من القنطرة الطويلة . وكانت الصحف تُهيب بهم أن يتقدموا « ويمضوا الى ريتشمند » .

وكانت ريتشمند على بعد مائة ميل

ولم تكن الجنود قد تدربت بعد ولا تأهبت ؛ ولكنهم تقدموا فى ٢١ يوليه عشرين ميلا ، وحاربوا الجنود المتحالفة عند خليج صغير يعرف باسم بُل رَن وكان ذلك فى يوم الأحد ، فقام كثيرون من واشنجطن ليتفرجوا على تلك المعركة الأولى كأنها كانت سباق خيل ، أو استعراضا حربيا ؛ وعند الظهر سمع ويلى وتاد من حصنهما الذى على السطح المدافعَ تدوى كأنها أصوات ابواب تقفل بشدة . ومنذ الظهر كان لينكولن يصغى فى مكتب التلغراف بمصلحة الحرب . فكانت الأخبار مطمئنة كل الاطمئنان ، حتى أنه خرج حول الساعة الخامسة بالعربة لنزهة قصيرة ليستريح . وبعد ساعة صادفه سكرتيراه عند مدخل البيت الأبيض ، وأخبراه بلبأ هزيمة منكرة حاقت بهم . ولم يمض وقت طويل حتى توافد المتفرجون ينشرون أنباء الكارثة ، فاستولى الذعر على الناس وأخذ منهم كل مأخذ حتى كانوا واثقين من أن جيش الثوار سيكون فى واشنطن فى أية لحظة ؛ وعندئذ يكون كل شىء قد ضاع .

وفى اليوم التالى جعلت الجرائد تعزو هذه الهزيمة الى الحكومة السخيفة ، والى الرئيس الذى لا يصلح لشىء — ذلك « الجاهل الأبله »

وإذ كان لينكولن رئيسا للولايات المتحدة فى زمن حرب فقد أصبح القائد الأعلى للجيوش كذلك . وبوصفه هذا أدرك أنه بحاجة الى الاستزادة من الإلمام بالتكتيك الحربى ، ففعل ما اعتاد أن يفعله دائما : استحضر الكتب اللازمة وعكف يقرؤها ويدرسها فى كل لحظة يستطيع أن يوفرها من لحظات يومه الحافل بالأشغال . وبعد زمن قصير أدهش قواده بحسن إدراكه لحاجاتهم ودقة فهمه لمشكلاتهم .

وفى الخريف كان تاد وويلى يدرسان كذلك ، أو كان مفروضا فيهما أن يدرسا ، لأن والدتهما اختارت لهما مدرسا يؤدبهما ، وأعدت لهما المكاتب اللازمة ، وسبورة وضعتها فى حجرة الطعام الرسمية الكبرى

ولكن كيف يتيسر لصبيين صغيرين أن يدرسا على حين أن الجياد الصغيرة ، والأرانب ، والمعيز ، وسائر أنواع الحيوانات الأليفة تهدى اليهما باستمرار ؟

وكان عند ويلى مهر صغير يحبه كل الحب ، فصمم على أن يركبه ويجرى به فى يوم بارد كثير الثلوج من أيام شهر فبراير ، يشبه ذلك اليوم الذى غادروا فيه سبرنجفيلد فى السنة الماضية ، فأصابه برد ، ومرض مرضاً شديداً ، وظلت صحته تزداد سوءا يوما بعد يوم ؛ وتوفى فى وقت قصير جداً حتى لا يكاد المرء يصدقه .

مسكين « تاد » الصغير هذا ! إنه لم يستطع أن يصدق هذا الخبر ، لم يرد أن يصدقه . وكادت أمه تخرج عن نفسها حزناً عليه وأسى ،

وحاول لينكولن جهده أن يواسيهما كليهما ؛ ولكن اذا جن الليل ، كان الحارس الذى عند بابه يسمع الرجل الحزين وهو يذرع الحجرة ذهاباً وجيئة ، أو يتأوه فى نومه ويئن .

وهكذا انتهت أول سنة لهم فى البيت الأبيض .

التحرير

كان تحرير العبيد أعظم حادث حقا فى السنة الثانية من رياسة إبراهام لينكولن . فبعد مضى عدة أيام على جنازة ويلى ، دعا مجلس وزرائه للانعقاد ، وللبحث عن طريقة لمعالجة هذه المشكلة . وقال إنه ظل شهورا كثيرة يحاول التفكير فى طريقة لتحرير العبيد تكون عادلة ومنصفة لأصحابهم .

وكانت جلسات مجلس الوزراء تعقد فى حجرة فى البيت الأبيض يدخلها الرئيس من مكتبه الخاص ، فلما أخذ يتكلم كان أعضاء المجلس السبعة جالسين معه حول مائدة مستطيلة وكلهم ملتح الا السيد « سيوارد » وزير الدولة . وكان رجلا مديد القامة ، ذا شعر كث رصاصى اللون ، وأنف ضخم . وكان وزير الحربية السيد « ستانتن » أطولهم لحية ، وأوفرهم نشاطا ، وأقلهم صبرا .

فكان دائما متحفزاً قلقا يريد العودة الى عمله الهام فى إدارة الحرب . أما من حيث تحرير العبيد ، ففكرته الوحيدة المتسلطة عليه ليست كيف تحرر العبيد ؛ ولكن علينا أن نحررهم ، ونفرغ من المشكلة . فى نظره ان المناقشة فى تحقيق العدالة والإنصاف لأصحاب العبيد عقيمة غير مجدية ، ومضيعة للوقت ؛ ولم يكن مما يهدىء غضبه أن تطول الجلسات ، وتتخللها دقات عالية على الباب .

وكان لنكولن خطيباً مصقعاً . فاستطاع بصوته القوى ونبراته الحادة أن يسيطر على السامعين .

وفعلت كلماته فى السامعين فعل السحر لأنه استخدم كلمات بسيطة واضحة توحى بالأمانة والصدق .

واستولت الدهشة على السامعين جميعاً لأن لنكولن فتح عيونهم على أشياء لم يفكروا فيها من قبل . . . تحرير العبيـــــد .

فبعد الدقة الغليظة جاءت دقة أخرى قصيرة حادة ، تلتها غيرها غليظة بطيئة ثم دقة أخرى كذلك ، وبعدها دقتان حادتان . فأصغى لينكولن وابتسم .

ثم قال : — (ت) : — (ا) ، — . . (د) ! . . هذا (تاد) . ونهض وهو يقول لقد وعدت أن أجيبه دائما كلما استعمل إشارات « المورس » .

وفتح الباب .

فاندفع إيب كأنه إعصار صغير ، وعانق والده بقوة ، ثم جرى يبحث عن طلبته وعاد وخرج مسرعا وهو يقول . إنه : « أراد أن يذهب الى مكتب التلغراف عقب الجلسة » .

وكان مكتب التلغراف فى الدور الثانى فى إدارة الحرب عبر الحديقة من ناحية البيت الأبيض ، وفيه كان يقضى لينكولن كل يوم جزءا من الوقت يستمع الى التقارير التى ترد من الجيوش والقواد فى جبهة القتال .

وكان آخر شىء يعمله عادة فى الليل قبل أن يمضى الى مخدعه ، أن يتريض قليلا سيراً على الأقدام ، وكثيرا ما كان يصحبه (تاد) فيراهما ستانتون آتيين معا — الرجل الفارع الطول ، والصبي الصغير ، يسيران يداً فى يد فى الطريق المفروشة بالحصباء .

وكان فى ميدان القتال جيشان اتحاديان : أحدهما فى الشرق على

نهر البوتوماك ، والثانى فى الغرب عند نهر المسيسيبى . وكانت ترد أحيانا بعض الأخبار الطيبة من الجيش الذى فى الغرب . فنى السادس من فبراير ورد أول تقرير من الغرب يبشر بانتصار حازه جيش الاتحاد ، فقد كسب قائد غير معروف معركة ، وكان اسمه جرانت . ومن قبيل المصادفات أن أول حرف من كل من اسميه كان يشبه أول حرف من كل من كلتى الولايات المتحـــدة (باللغة الانجليزية) U·S وهما كذلك أولا حرفى العبارة الدالة على الشروط التى اشترطها عقب انتصاره وهذه العبارة الانجليزية هى (Unconditional surrender) ومعناها الاستسلام بغير قيد أو شرط — U S — فقد كان اسم الرجل Ulysses Simpson Grant

هذا ، ولم تصل أخبار مطمئنة من جيش البوتوماك فقد كانت المؤن والذخائر والخيل ترسل اليه الاسبوع بعد الأسبوع ، ولكنه كان قد توقف . فنى أواخر شهر مايو كان على بعد عشرة أميال من ريتشمند ولم يستطع أن يتقدم بعدها أى تقدم

وذلك لأن القائد العظيم الجنرال روبرت لى الفرجينى ، كان هو القائد الذى تولى الدفاع عن عاصمة المتحالفين ، وهاجم جيش الاتحاديين واضطرهم الى التقهقر بعد معركة مريعة استمرت سبعة أيام

وكانت التقارير الواردة عن القتلى والجرحى محزنة تغشى النفوس ؛ فكل برقية ترد كانت تحزّ فى قلب لينكولن وتمزقه ، كأن كل جندى مات

ابن من أبنائه ، سواء كان ذلك الجندى من رجاله أو من خصومه ، وسواء كان من لابسى الحلل الزرقاء أو من لابسى الحلل الرمادية ، حتى لم يعد فى طاقته أى مجال للاحتمال . فكلهم أفراد من أسرته . !

فذات يوم ، وهو يدخل مكتب التلغراف ، وقد غلب عليه الحزن ، طلب بضعة أدراج من الورق .

وقال أريد أن اكتب شيئا خاصا قد يكون فيه إنهاء الحرب ، فانى استطيع أن أكتب هنا بهدوء أكثر مما استطيع أن أفعل وأنا فى البيت الأبيض .

فجلس أمام مكتب قريب من النافذة ، ولكنه لم يكتب على الفور شيئا كثيرا ، وذلك ، كما قال رئيس عمال التلغراف عندما تحدث فى هذا الموضوع فيما بعد ، بل ظل يُطل من النافذة ويدرس الفينة بعد الفينة . . . . . ووقع نظره مرة على خيط عنكبوت يمتد من المدخل الى وصيد النافذة الخارجى ! وبدت عليه أمارات الاهتمام ، عندما ظهر عنكبوت كبير عند مفرق الطرق ، وقرع عدة مرات على الخيوط ، فحضر على الأثر خمسة عناكب أو ستة للتسامر .

وكان لينكولن يحضر كل يوم ليكتب . وعند ما يتهيأ لمغادرة المكتب يوصى العامل عادة أن يُعنى بما كتبه ، وألا يدع أحداً يطلع عليه

ولما فرغ من الكتابة قال :

كتبت أمراً يمنح العبيد الذين فى الجنوب الحرية .

وفى جلسة مجلس الوزراء التالية قرأ عليهم ما سبق أن كتبه ، فأجمعوا كلهم على أن هذا الأمر يجب أن يصدر ، ولكن السكرتير « سيوارد » شعر بأن الوقت لم يحن بعد وقال :

أظن أن الحكمة تقتضينا أن ننتظر حتى ينال الاتحاديون انتصاراً. فعاد أعضاء الوزارة ووافقوا على هذا الرأى .

وعلى هذا انتظر لينكولن الى أن يكسب رجال الاتحاد انتصاراً فى معركة ، ولكن انتصاراً ما لم يتم ، بل حدث لهم انهزام آخر فى شهر أغسطس فى موقعة بُل رَن الثانية وازدادت الأمور سواداً على سوادها، وساءت أكثر مما كانت عليه فى يوم من الأيام . فقد عبر الجنرال لى نهر البوتوماك عند واشنجطن وسار شمالا عبْر ماريلاند متجها نحو فيلادلفيا . فهنا فى اواسط شهر سبتمبر أوقفه جيش الاتحاد نهائيا عند نقطة اسمها أنتيتام كريك وبعد موقعة من أشد مواقع الحرب هولا ارتد لابسو الحلل الرمادية . لقد آن الأوان .

فبعد أسبوع دعا لينكولن مجلس الوزراء للانعقاد . وجاء السيد ستانتون مندفعا ، بلحيته ، وسترته الطويلة ، فليس أمامهم وقت يضيعونه . فقد كانت أعصابهم جميعا متوترة مما أرهقوا به فى الأسابيع الماضية . فأصلح لينكولن نظارته ، ولم يخرج ورقة ، كما كانوا يتوقعون بل فتح كتابا صغيراً ، وقال :

أيها السادة اسمحوا لى أن أقرأ عليكم فصلا من هذا الكتاب . فانه

مثير للضحك جداً . وبعد أن فرغ ضحك هو ، وتلفت حوله فضحك واحد أو اثنان ، ولكن استانتون لم يضحك مطلقا ؛ فقال له لينكولن فى رفق : ألا تستطيع أن تضحك ؟ انكم جميعا بحاجة مثلى الى الضحك، اننى — وسط هذه الشدة المريعة — لأموت إن لم استطع أن أضحك .

ثم بدت على وجهه علائم الرزانة والجد ، وتبدلت لهجة صوته لما قال أعتقد أن الوقت قد حان الآن لإصدار الأمر الذى يقضى بتحرير العبيد . وهأنذا أعيد عليكم قراءته من جديد . ونشر الورقة ، وقرأ ماسبق له أن كتبه فى مكتب التلغراف ؛ وكان يتوقف مرات كثيرة فى أثناء القراءة ليشرح ويعلق ؛ ثم وقع الأمر، وهو يقضى بأنه :

من أول يناير سنة ١٨٦٣ يكون جميع العبيد فى الولايات التى لا تزال فى حرب مع الولايات المتحدة — أحراراً على الدوام .

ومرت أربعة شهور ، ولكن الولايات لاتزال فى حرب بعضها مع بعض . لقد تم الفصل فى الأمر

وجاء عيد رأس السنة الجديدة فى أول يناير سنة ١٨٦٣ ، وجاء ميعاد حفلة الاستقبال السنوية التى تعقد فى رأس كل سنة فى الحجرة الشرقية من حجرات البيت الأبيض، ووقف لينكولن يصافح الضيوف بيده حتى قبيل العصر ، ثم أحيط علما بأن وزير الدولة ينتظره فى مكتبه ، فقد أحضر السيد « سيوارد » الصيغة النهائية ليوقعها الرئيس.

وقال لينكولن وهو يتناول قلمه !

« لاتزال يدى متصلبة من كثرة مصافحة الناس طيلة الصباح . وأرجو ألا يضطرب خطى ، فلست أريد أن يقول أحد إنى ترددت فى توقيع هذه الوثيقة باسمى ، فلم أكن فى يوم من أيام حياتى أكثر وثوقا من أنى انما أعمل ما فيه المصلحة والحق .

وعلى ذلك غمس قلمه فى الدواة ووقع باسمه

إبراهام لينكولن

وبذلك يكون قد وقع ماعرف فيما بعد :

باعلان التحرير

وبعد سنتين ، أصدر الكونجرس قانونا يقضى بتحريم الرق فى أى مكان فى الولايات المتحدة . وأضيف هذا القانون الى الدستور ، على أنه التعديل الثالث عشر . وهكذا صارت ألفاظ «إعلان التحرير» نافذة أخيراً من الوجهة القانونية على الأقل .

فجميع المواطنين فى الولايات المتحدة متساوون فى حقوقهم فى الحياة ، وفى الحرية ، وفى السعى وراء ما فيه السعادة .

فى جتيزبرج

لم تحدث فى أراضى الشمال سوى معركة واحدة من معارك هذه الحرب المحزنة التى شبت بين بعض الولايات وبعض . وهى المعركة التى حدثت فى شهر يوليه سنة ١٨٦٣ على مقربة من حدود ولاية بنسلفانيا عند مدينة جتيزبرج ، وظلت رحى القتال فيها دائرة ثلاثة أيام . وبعد أن انتهى القتال صمتت المدافع ، وانقشع الدخان ، كان أكثر من أربعين الفا من الرجال والشباب فى حللهم الرمادية والزرقاء صرعى فى ميدان الحرب . وفى اليوم التاسع عشر من نوفمبر ، أى بعد أربعة شهور ، أقيم احتفال كبير لجعل هذه الساحة مقبرة أهلية .

وقبل ذلك بيوم واحد غادر قطار خاص واشنجطن ، ونزل منه لينكولن وفى قبعته ، أو فى جيبه ، صحيفة من أوراق البيت الأبيض كتب فيها جزءاً من الكلمة التى عزم أن يلقيها . فقد طُلب منه أن يوجز إذ أن السيد ادوارد افريت الذى عرف منذ سنين بأنه خطيب قدير سيلقى الخطاب الأساسى .

وكانت قد أقيمت منصة غشيت بالأعلام ؛ فظل السيد افريت يخطب ساعتين متواليتين ، وكانت خطبة حافلة بالمعانى ، مهذبة مصقولة ، ولكنها مع ذلك لم يكتب لها الدوام ، فقد نسيها الناس من زمن طويل . وبعد أن فرغ إفريت من القاء كلمته عزفت الموسيقى بضع ألحان مختارة

ولم تستغرق العبارات التى ألقاها غير بضع لحظات قصار ، ولكنها عبارات سيظل الناس يذكرونها ما دامت اللغة الانجليزية ، وكانت عبارات بالغة البساطة وبالغة الجمال . . فقد قال :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت أنشأ آباؤنا فى هذه القارة ، أمة جديدة ، قامت على الحرية ، وكرست نفسها للمبدأ القائل بأن الله خلق الناس جميعا متساوين .

وها نحن الآن مشتبكون فى حرب أهلية عظمى تبلو هذه الأمة ، أو أية أمة أخرى مثلها قامت على أساس هذا المبدأ ذاته ، وكرست نفسها له ، لتظهر إن كان فى وسعها أن تعيش طويلا .

وهانحن قد اجتمعنا فى ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب ، وجئنا لنخصص جزءاً منه ليكون المثوى الأخير لأولئك الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل أن تحيا هذه الأمة ، وإنه لجدير بنا ، وحق علينا ، أن نفعل ذاك .

على أننا بمعنى أوسع ، لانستطيع أن نكرس هذه الأرض ، ولا أن نُضفى عليها قدسية ما ؛ فالرجال الأبطال ، الأحياء منهم والأموات ، الذين قاتلوا هنا قدسوها تقديسا أعظم وأسمى من أن تستطيع قوتنا الضئيلة أن تزيد عليه أو تقلل من شأنه . وسوف لايأبه العالم كثيراً لما نقوله هنا ؛ وسوف لايتذكره طويلا ، ولكنه لن ينسى أبداً ما فعله هؤلاء الأبطال .

« فعلينا نحن الأحياء أن نكرس أنفسنا هنا للعمل النبيل الذى لم يتم بعد ، والذى عمل على تقدمه الى هذا الحد أولئك الذين قاتلوا فى سبيله هنا . نعم ، إنه لأولى بنا أن نكرس أنفسنا هنا للقيام بذلك الواجب العظيم الذى لا يزال أمامنا ؛ فلنستمد من هؤلاء الموتى المكرمين إخلاصا متزايدا للقضية التى بذلوا فى سبيلها آخر قسط واف من الإخلاص ، وأن نعقد العزم هنا على أن لا يكون هؤلاء الموتى قد ماتوا عبثا ، وأن الحرية ستبعث فى هـــذه الأمة ، بأذن الله ، بعثا جديداً .

« وأن حكومة الشعب ، بواسطة الشعب ، وفى سبيل مصلحة الشعب ، لن تزول من على وجه الأرض » .

نحو النهـايه

لما عاد الرئيس لينكولن من جتيزبرج كان مريضاً ؛ على أنه لحسن الحظ ، مالبث أن تعافى وعاد إلى مكتبه ، ولكنه بدا أشيب الرأس ، متعباً ومنهوك القوى حتى ألح عليه أصدقاؤه أن يستريح فلم يكن منه إلا أن ابتسم وهز رأسه .

ثم قال « لا أستطيع أن أستريح ، فالجزء المرهق منى إنما هو فى نفسى ، وبعيد عن متناول يد أى إنسان »

فلا راحة إلا بعد أن تنتهى الحرب . فعدد المشكلات التى عليه أن يواجهها ، وعدد الأسئلة التى عليه أن يجيب عنها ، والمساوىء التى عليه أن يتحملها — كانت لانهاية لها ولا آخر . ذلك إلى أن الزوار كانوا يحاصرونه كل يوم ليرفعوا إليه الشكاوى ، ويقدموا له المقترحات التى تعن لهم . فازدحمت الردهة بجماهير الناس الذين ظلوا ينتظرون دورهم فى الإذن لهم بالدخول إلى مكتبه .

فذات يوم ، وقد فتح الباب ، فوجىء لينكولن مفاجأة سعيدة . فان شخصاً قصير القامة ، نحيل الجسم قوى به ظهر ماثلا أمامه ، وقال كيف حالك يا إيب ؟

فصاح لينكولن : دنيس ! دنيس هانكس ! فهذا هو الشخص الذى زاره لأول مرة منذ خمس وخمسين سنة مضت ! وعاد منها مخيب

وكان لنكولن يحب حفيده حباً شديداً .

وكثيراً ما كان يصحبه معه إلى مكتبه .

وكان الناس كلما رأوا لنكولن وحفيده يسيران جنباً إلى جنب شعروا بمدى حب الرجل الكبير للصبي الصغير ....

وقبل مصرع لنكولن بأيام قليلة أصر الصبي الصغير على التقاط صورة له مع الرجل الخـــالد .

الآمال ، فطوقه لينكولن بذراعيه ، وسأله عن جميع أخبار آل جونسون ، وآل هانكس ، وقدم إليه فيما بعد ساعة فضية هدية منه ليحتفظ بها على سبيل الذكرى ، إذ كان يسره دائماً أن يرى أصدقاءه القدامى من إلينوى وإنديانا . وكثيراً ما خطر له أن يود لو يرى أوستين ثايار أول رفيق له فى لعبه فى كنتكى

وكذلك عندما بدأت سنة ١٨٦٤ كان لينكولن يتطلع إلى مقابلة رجل من إلينوى . ولم يكن هذا الرجل صديقاً للينكولن كما لم يكن غريباً عنه تماماً ، فقد كان ضابطاً فى الجيش — كان ذلك القائد الذى انتصر أول انتصار ناله جيش الاتحاد ، وقد استولى الآن على آخر حصن على المسيسيبى وبذلك أنهى تلك المعركة الطويلة التى كان الغرض منها السيطرة على نهر المسيسيبى

هذا هو الجنرال أوليسيز س . جرانت . فقد كان فى شهر فبراير فى طريقه الى واشنجطن ليتسلم مركزه الجديد ، اذ عهد اليه بمنصب القائد العام للجيوش المتحدة . وكان لينكولن قد أرسل يستدعيه وجعل يترقب حضوره

فليلة وصل جرانت اتجه الى البيت الأبيض مباشرة ؛ ولسوء حظه كانت ليلة الاستقبال عند الرئيس . ولما كان جرانت رجلا يغلب عليه الحياء فقد أراد أن يعود أدراجه . ولكنه لم يستطع فذلك أمر يجلب النحس وينذر بالشؤم ؛ وانتهى به الأمر أن القى سيجاره

ودخل . وكان رجلا قصير القامة ، متزمتاً ذا لحية كثة سمراء ، يرتدى بذلة رسمية كثيرة التجاعيد والغضون ؛ فبدا أشبه برجل عاطل خرج من عمله ، منه ببطل فاتح ؛ ولكن ما أن شاهدته الجماهير حتى عرفته فى الحال ، وما كاد يتحدث الى لينكولن حتى صاح به بعض الناس أن « قف حيث نستطيع أن نراك »

وبعد أن قُدم جرانت الى عقيلة السيد لينكولن اضطر أن يقف على مقعد طويل من تلك المقاعد القرمزية بحذائه الكثير التراب ، فارتبك كل الارتباك ولم يستطع أن ينبس بكلمة واحدة

ومع ذلك فقد كان هو الذى سينهى الحرب باستيلائه على مدينة ريتشمند عاصمة المتحالفين ، وباكراهه القائد العظيم الفرجينى الشجاع « روبرت لى » على الاستسلام

فقبل أن ينتهى شهر مارس كان جرانت قد عبر نهر البوتوماك ، وأقام مركز قيادته مع الجيش الاتحادى فى فرجينيا . وفى مايو اتجه الى الجنوب الشرقى ميمماً شطر ريتشمند . ومن ثم ظل يعمل فى صمود ومثابرة . وقد بعث باشارة تلغرافية قال فيها :

« عقدت النية على أن أحارب هنا فى هذا الخط الى النهاية ، ولو استغرق الأمر الصيف كله » . وهذا ما قد حدث .

نعم لقد أكرهه خصومه على تغيير اتجاهه مرة أو اثنتين ، ولكن لم يحدث أبدا أنه تراجع قط ، بل صمد ولبث الصيف كله طيلة

الشتاء، الى أن عاد الربيع ، وعندئذ اضطر الجنرال (لى) الى أن يسلم فلول مابقى من جيشه المتضائل .

هذا ، وقد ازداد العبء الذى كان ينهض به لينكولن حتى بلغ حداً يكاد لا يطاق . فلما قرأ كشوف القتلى، وزار الجرحى فى المستشفيات ، قال : أشعر أن أجلى لن يمتد بى بعد نهاية هذه الحرب ». ومع ذلك لم يبد أن هذا أزعجه ... وكذا لم تزعجه التهانون خطابا أو أكثر التى وصلته ، ويهدده فيها مرسلوها بعزمهم على اغتياله . فقال : ان الإنسان منا لا يستطيع أن يموت الا مرة واحدة ، ولكن معيشته فى خوف دائم من الموت معناها أنه يموت المرة بعد المرة ،

فكل ما كان يأمله هو أن يعيش حتى ينجز العمل الذى بدأه ، وأن يثق به الناس ثقة عظيمة تجعلهم يعيدون انتخابه فى شهر نوفمبر . وقد فعلوا على الرغم من أن منتقديه قد وجهوا اليه الكثير من اللوم ، وأن الصحف المعادية قد صورته فى أشكال كاريكاتورية قبيحة ، واتهموه بأنه كذاب ، ولص ، ووحش ، وأنه شيطان ، طاغية مستبد ، وشرير ، وجوريلا طويل الذراعين ! فعلى الرغم من ذلك كله أعاد الشعب انتخابه . فكان هو شاكرا ممتنا .

وفى الخامس من شهر مارس سنة ١٨٦٥ ، وهو يوم تنصيبه لثانى مرة ، كاد أن يكون سعيدا كل السعادة . فالحرب كانت قريبة من نهايتها . وبعد مضى شهر واحد تماما ، فى منتصف الساعة الخامسة مساء

من شهر ابريل وصلت من جرانت الاشارة التلغرافية التى طال انتظارها ، وفيهـــا يقول : ا استسلم الجنرال لى الى جيش فرجينيا هذا المساء .

لقد أنقذ الاتحاد وانتهت الحرب .

وفى الصباح التالى عند الفجر دوت على نهر البوتوماك خمسمائة طلقة من طلقات المدافع تحية للنصر . وعند الفطور أحاط موظفو الحكومة بلينكولن ينشدونه نشيد « العلم المرصع بالنجوم » وتجمع الناس فى الشوارع يهتفون ويغنون وامتلأت بهم حديقة البيت الأبيض ، وعزفت فرق الموسيقى . وظل (تاد) يذهب ويجىء ملوحا بعلم من الأعلام ، ثم ظهر الرئيس وتكلم من نافذة فى الدور الأول فقال :

« انى أرى معكم فرقة موسيقية ، فاقترح عليكم أن تعزفوا « ديكسى » نشيد الجنوب فهو من خيرة الألحان التى أعرفها . فعزفت الموسيقى « ديكسى » ثم عادت وعزفت نشيد « العلم المرصع بالنجوم » وبعد ذلك ساروا على نغمة نشيد الحرب الجمهورى »

وليس من شك فى أن إبراهام لينكولن قد نام هذه الليلة نوما عميقا ؛ ولا بد أن يكون الحراس الواقفين خارج حجرته لم يسمعوه وهو ينوح ويتأوه .

ومع ذلك ، فبعد مضى بضع ليال سمع لينكولن نفسه أصوات نواح وتنهد ، وكانت الردهة التى خارج حجرته مظلمة وخالية من الناس ، فلم

يكن بها أحد ؛ فتتبع لينكولن الصوت فى الردهة المهجورة ، وفى السلالم الى أن وقف عند باب الحجرة الشرقية فشاهد نعشا مجللا بالسواد وسط الحجرة .

فسأل من الذى توفى ؟

وأجابه احد الحراس انه الرئيس فقد اغتاله قاتل .

فجعل لينكولن ينوح ، ثم استيقظ على إثر سماعه صوته نفسه . واذا به فى حجرته — راقد فى سريره الكبير المصنوع من خشب الجوز !

انه انما كان يحلم . فلما قص حلمه فيما بعد على السيدة لينكولن فركت يديها حزنا واكتئابا ، لأنها كانت تعتقد أنه يستطيع أن يرى فى منامه ما يخبئه له المستقبل ، ورجت منه أن يحتاط ويكون على حذر فلا يذهب وحده ليلا الى مكتب التلغراف ، وإن فعل فليحمل معه عصا !

فقال لها فى رفق : « لا تنزعجى ياأماه ، فالله أعلم بما فيه الخير . وفى اعتقادى انه سينهى هذا الأمر على أحسن وجهة بطريقته الصالحة . وفى الوقت الذى يحدده »

ثم تبسم وقال : « ومع ذلك فسأحمل العصى إن كان حملها يزيدك راحة واطمئنانا . »

اليوم الأخير

كان الرابع عشر من شهر فبراير سنة ٨٦٥ هو آخر يوم . وكان يوما جميلا من أيام الربيع أخذت فيه من شمس الصباح الباكر تغمر بساط الكلأ الأخضر الذى أمام البيت الأبيض ، لما نزل لينكولن من سريره الكبير المصنوع من خشب الجوز . وكان أريج الليلاق المزدهر يفوح من النافذة . وما وافت الساعة السابعة صباحا حتى كان لينكولن أمام مكتبه ! فقد كان من عادته أن يبدأ عمله فى تلك الساعة . وفى الثامنة كان يتناول طعام الافطار . وكان معه هذا الصباح ابنه روبرت ، وهو شاب فى الحادية والعشرين من عمره حضر توآ من المعسكر فى فرجينيا ومعه صورة فوتوغرافية ليعرضها على أبيه ، فتأملها الأب باهتمام بالغ لأنها صورة رجل يحمل له لينكولن كل احترام وإجلال ، ولم يكن ذلك الرجل غير الجنرال « روبرت لى » .

وفى الساعة الحادية انعقد مجلس الوزراء . وكان منظوراً أن يحضر القائد جرانت هذه الجلسة ليشرح كيف وقعت وثيقة الاستلام فى بهو صغير من الطوب فى دار محكمة أبوماتوكس فى ولاية فرجينيا

وفى آخر لحظة هرول الوزير ستانتون ، كالعادة ، متأبطاً لفافة من الخرائط والأوراق هى خطط ورسوم لاعادة تعمير الجنوب : فمن رأيه التعجيل باعادة تعمير الجنوب هذا وإرجاعه إلى شكله ، على أن يتم ذلك فى وقت قصير

فهز لينكولن رأسه . . .

إن المسألة ستكون لا شك شاقة مهما ننظرنا اليها من أحسن وجوهها . فيجب أن نتناولها بشكل يكون فيه إنصاف وعدل لكافة الذين قاسوا وتحملوا . وقد عبر عن هذه الفكرة فى خطابه الافتتاحى بقوله :

« من غير حقد على أحد ، ومع التسامح والاحسان إلى كل إنسان ، ضمدوا جراح الأمة ، واعملوا كل ما يمكن عمله لإنجاز صلح عادل دائم وحافظوا عليه » .

ثم التفت إلى القائد جرانت ، وسأله عن الشروط التى قدمها للجنود العاديين

فأجاب جرانت : « قلت لهم أن يعودوا إلى بيوتهم وعائلاتهم ، ووعدتهم بألا يضار أحد منهم ماداموا لم يفعلوا شيئا أكثر من ذلك » .

فهز لينكولن رأسه ، وأشرق وجهه ، فهذا حق ، وهذا مما يجب أن يكون .

ولما انقضت الجلسة عاد الرئيس والتفت إلى الجنرال جرانت وقال له :

يسر السيد لينكولن ويسرنى أن تكون أنت والسيدة جرانت معنا هذه الليلة فى المسرح ، فالرواية التى تمثل ستكون كوميديا مسلية اسمها « ابن العم الأمريكى »

فارتبك الجنرال جرانت ، وقال إنه قد أعد تذاكر السفر إلى واشنجطن لزوجته ولنفسه بقطار المساء ، فلابد أن يكون ثمة تضارب بين الموعدين .

فوافق لينكولن وودعه

وبعد الظهر حضر زوار كثيرون لرؤية الرئيس ، ومن بينهم أم جندى شاب حكم عليه بالاعدام لأنه هرب من الجندية ، فوقع لينكولن على طلبها بالعفو عنه ، فهو مستعد دائما لأن يعفو ويرحم ، كلما كانت الرحمة سبيلا إلى تخفيف أثر العدالة

وفى العصر ركب العربة مع زوجته ومضيا بها فى رياضة قصيرة ؛ وكانت أشجار الصفصاف القائمة عند النهر خضراء مزدهرة ، وكان الهواء نسيما عليلا .

فقال لينكولن :

« إنى لم أشعر بمثل هذه السعادة فى حياتى »

وهذا ما ينبغى أن يكون . فقد أنجز عمله . ووجد العمل الذى قدر له أن يقوم به فى حياته ؛ وقام بانجازه على خير وجه . . . فذلك أكبر سعادة يتسنى لأحد أن ينعم بها

واختارت السيدة لينكولن رداءها الأزرق السماوى المصنوع من التافتاه لتذهب به هذا المساء من شهر ابريل إلى المسرح ، ووضعت على شعرها تاجا من الورد الأحمر . أما لينكولن فلبس قبعته السوداء

العالية ووضع على كتفيه شالا صغيراً رمادى اللون . وكانت العربة واقفة أمام البيت الأبيض ؛ فركباها وسارا بها هذه الليلة الرطبة فى شارع بنسلفانيا واتجها بها الى مسرح فورد « ليشاهدا الكوميدية الذائعة الصيت »

وكذلك كان يمثل شاب اسمه «جون ويلكى بوث» يسير فى طريقه مثلهما الى المسرح ليقوم بدور له هذا المساء نفسه ولكنه لم يكن دوراً من أدوار المسرحية الكوميدية بل دوراً فى مأساة دبرتها نفسها الشريرة

وكان لوج الرئيس لصق المسرح وقد ازدان بالأعلام . فلما دخل مع السيدة زوجته وقف النظّارة ، وهتفوا لهما ، وعزفت الموسيقى بنشيد « حيوا الرئيس ! » . وكان مع لينكولن وزوجته ضيفان هما سيدة شابة وضابط شاب برتبة بكباشى اسمه راشبون

فجلس لينكولن فى كرسى «هزاز» ومال به الى الأمام وساعداه الطويلان منعقدان على « الدرابزون » كى يستمتع بمشاهدة التمثيلية . ثم عاد ومال الى الوراء ليتمكن من رؤية زواره وهو مستريح فى أثناء فترات التمثيل

وارتفع الستار عن المنظر الثالث وبعد أن تم نصفه ..

سمعت طلقة نارية

وصاحت امرأة

واندفع رجل من لوج الرئيس متجها نحو المسرح فاصطدمت

ساقه بأحد الأعلام ، ثم نهض ووقف على قدميه ولوّح بخنجر فى يده ، ثم هرب من المكان وهو يصيح : « الموت للطغاة » !

وهب النظارة فى رعب واضطراب . فماذا حدث يا ترى ؟ : الرئيس ! فقد أطلقوا عليه الرصاص ؟ كيف ؟ وكيف يمكن أن يحدث هذا ؟ أين كان الحراس ؟ أين كان الرئيس ؟

وتدفقت الجماهير على ممرات المسرح وردهاته : وسدوا مدخل « اللوج » ولكنهم رُدّوا عنه ليفسحوا الطريق لحاملى المحفة المؤقتة التى حمل عليها الرجل الطويل جريحا فاقد الوعى ويسيل الدم من قفاه ، ويتساقط نقطا قانية على البرامج المبعثرة على الأرض كأنها أوراق الشجر .

ثم نقلوه الى بيت صغير لخياط عبر الشارع . وسارع شخص وأسرج مصباح الغاز فى حجرة صغيرة من حجرات البيت التى فى الخلف ، ووضعوه على سرير غير عريض

ثم جاء الأطباء ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرده من ذلك البرزخ القائم بين الحياة والموت ، فاضطربت أنفاسه عند الفجر . وفى الساعة السابعة غادره ذلك الجزء المتعب من نفسه

وجللت المرايا الطويلة التى فى البيت الأبيض ثلاثة أيام بالشاش الأسود والأرجوانى ، ووضع نعشـــه بالشكل الذى رآه فى الرؤيا وهو يحلم !

ولكن هذا لم يكن رؤيا ولا حلما . . . إنه النوم العميق الذى

لا حلم فيه ، انه الراحة التى كسبها بحق ونالها بجد . ذلك لأنه هو أيضا قد بذل آخر قسط من الاخلاص وافيا كاملا .

لقد كان على الذين عاشوا ومضوا ، كما هو على الذين ظلوا على قيد الحياة ، أن يراعوا أن الذين ماتوا فى سبيل الحرية ، لا يكونون قد ماتوا عبثا ، وأن حكومة الشعب بوساطة الشعب ، ولمصلحة الشعب لن تزول من على وجه الأرض . »